

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء الثالث عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثالث عشر

وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ
رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان في البحر ،
ويؤيده عطفه على ما قبله ، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر ، لأن تقسيم القرآن
إلى الأجزاء قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى .

الإيضاح

(وما أبرئ نفسي) أى وما أبرئ نفسي من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب
بعد أن وجهت إليه اقتراح الذنب وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن
يسجن أو عذاب أليم ، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك ،
وكانها بذلك تريد التنصل مما كان .

(إن النفس لأماراة بالسوء) أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعى الشهوات الجسمية والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات ، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرضت زوجى على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوءه ، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يُزَنَّ بالريبة كما يسوء زوجى إذ لا يرضى أن يكون عرضه مضغة للأفواه وحديث الناس فى أُنديتهم وأَسْمارهم .

(إلا ما رحم ربى) أى إلا نفسا رحمها ربى فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .
ثم علل ما سلف بقوله :

(إن ربى غفور رحيم) أى إن ربى عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِى أَسْتَخْلِصُكَ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٤٤) قَالَ أَجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ
عَلِيمٌ (٥٥)

المعنى الجملى

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفى له بما اشترط لجيئته - فلما جاءه وسمع كلامه فهم من فخوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وجسني تصرفه ، ومن

سيرته الحسنة في السجن ، ومن علمه وفهمه في تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب ويولى أسمى المناصب ، وذلك هو ما فعله الملك لخصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريباً أو فقيراً أو مملوكاً ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

الإيضاح

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلى بعد أن وفيت له بما طالب : أبعده خالصاً الى وموضع ثقتي فلا يشاركه أحد في إدارة ملكي ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثياباً جُدداً و قم إلى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاماً حدثاً ، فقال أيعلم هذا رؤياى ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه ، وقال لا تخف وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر إن يوسف خليفة الملك .

(فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازع في تصرفك ، ولا متهم في أمانتك .

وفي هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزايهم .

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وأمرأته بمحادثته إياها ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه في السجن .

وقد تكون اللغة التي كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته

وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرغت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبرانية والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرياسة (الهكسوس) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

(قال اجعلني على خزان الأرض) الخزائن واحدها خزانة وهي ما يخزن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولنى خزان أرضك كلها وأكن مشرفا عليها لأتخذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .

ثم ذكر سبب طلبه فقال :

(إني حفيظ عليم) أى إني شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضيع منه شئ أو يوضع في غير موضعه ، عليم بوجوه تصرفه وحسن الانتفاع به .

وقد طلب إدارة الأمور المالية لأن سياسة الملك وتتمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تركية نفسه في ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه في تولية هذه المهام .

وما أضع كثيرا من الممالك الشرقية في القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في النظام المالى وتدبير الثروة وحفظها في الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلمه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصديق ؟ قال تزرع في سننى الخصب زرا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقي له ، ويكون القصب علفا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعث ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقتل الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه ؟ قال : اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ يَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكيثا أميناً وطلب يوسف منه أن يجعله على خزان الأرض يصرفها على حسب ما يرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه وجعله وزيراً فى دولته يتصرف فى شئونها بحسن تدبيره وثناقب رأيه ، وذلك جار على سنن الله فى خلقه ، فإن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتية الله من المواهب ما يجعله قادراً على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة فى تصرف الأمور .

الإيضاح

(وكذلك مكثا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء) أى ومثل هذا التمكن الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لولم يحسدوه ما ألقوه فى غيابة الحب ، ولولم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولولم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما آمنه على بيته وماله وأهله ، ولولم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولولم تحب فى كيدها وكيد صواحباتها ما ألقى فى السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولولم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه فى تعبير الرؤيا ، ولولم يعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزان الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سبباً للوصول إلى ما يليها ، فكلها فى بدايتها كانت شراً وخسراً وفى عاقبتها فوزاً ونصراً أميناً ومهدت للتمكن لدى ملك مصر . فكلما مكن له فى ذلك مكن له فى أرض مصر وقد جرى به مملوكاً فأصبح مالكاً ذا نفوذ وأمر ونهى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالضرب واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمور .

(نصيب برحمتنا من نشاء) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية (ولا نضيع أجر المحسنين) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم ، بل تأجرهم عليها سعادة وهناءة ، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها وسار على مقتضى السنن التى وضعناها .

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات ، وتتوالى عليهم المكدرات ، فالمسرفون لا يلبثون أن ينالهم الفقر والعُدم ، والظالمون يثيرون أضعاف المظلومين ، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محقرين ، ولما يصيب الحسنيين الشاكرين من ذلك شىء ، وإن نالهم منه شىء يكن أهون عليهم وهم عليه أصبر .

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكن له فى الأرض ولدى ملك مصر .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وذلك خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعد له لأولئك ليتضاءل أمامه كل مافى الدنيا من مال وجاه وزينة ولا شبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقا من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته .

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « قال فقراء المهاجرين للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحداه دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال ما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما تتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون

الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)
وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِآخِ لَكُمْ مِنْ أَيْبِكُمْ أَلا تَرَوْنَ
أَنِّي أَوفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ
لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)
وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

شرح المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكير في أثره ، وضده الإنكار ، وجهزم : أى أوقر ركبائهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبطه وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جعله وافيا تاما ، المنزليين : أى المضيفين للضيوف ، تراود : أى نخادع ونستميل برفق ، لفاعلون : أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى غلمانة السكيالين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما ، والبضاعة : المال الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الركاب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

المعنى الجملى

جاء فى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين ولى الوزارة

طفق يُعَدُّ العُدَّة ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي بقي بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للعُلك ، وكان من ذلك أن بنى الأهرام العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سنى الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولاسيا أقربها إليها وهي فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشترؤا به قمحا لأن المجاعة أوشكت أن تقضى عليهم فنفذوا ما أراد وكان بينهم وبين يوسف ماقصه الله علينا في كتابه الكريم .

الإيضاح

(وجاء إخوة يوسف) متتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر ، وكان قد حل بال يعقوب ماحل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يابني قد بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجوزوا إليه واقصدوه واشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

(فدخلوا عليه) وهو في مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

(فعرفهم) حين دخلوا عليه بلا تردد إذ كان عددهم وشكلهم وزيمهم لا يزال عالقا بخياله لنشوئه بينهم ولاسيا ما قاساه منهم في آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التي رحلوا منها .

(وهم له منكرون) لنسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة ، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بره وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه ، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوايح الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملامحه وتذكروها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدكم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

(ولما جهزهم بجهازهم) أى ولما أوفر ركابتهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهازهم بما سوى ذلك من الزاد وما يحتاج إليه المسافرين عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم . (قال اثنتونى بأخ لكم من أبيكم) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لا يستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما من شىء من الطعام فجهز لهما بعيرين آخرين . وقال لهم جيئوني بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان اسم أبيهم عن أنفسهم متذكراً لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليرأوا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخاً ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أبينا اليوم ، والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كنتمكم به قائلًا ، جواسيس أستم ، بهذا أتمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجئى أخيك الصغير إلى هنا . فدعوا رهيناً عندى وأتوني بأخيكم من أبيكم ، فافترعوا فأصاب القرة شمعون فخنفوه عنده . ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا لطريق ، ففعل لهم هكذا اه .

(ألا ترون أنى أوفى السكيل) أى أتمه ولا أبحسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيك . (وأنا خير المنازين) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه . فقد أحسن ضيافتهم وجهازهم بالزاد السكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لاثليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) أَيْ فَإِذَا عَدْتُمْ تَتَارُونَ لِأَهْلِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ مَنَعْتُمْ مِنَ الْكَيْلِ فِي بِلَادِي فَضْلًا عَنْ إِيفَائِهِ وَإِكْمَالِهِ الَّذِي كَانَ لَكُمْ بِأَمْرِي .

(وَلَا تَقْرَبُون) أَيْ وَلَا تَقْرَبُونِي بِدُخُولِ بِلَادِي فَضْلًا عَنْ الْإِحْسَانِ فِي الْإِنْزَالِ وَالضِّيَافَةِ .

وَفِي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى نِيَّةِ الْاِمْتِيَارِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَعْلُومًا لَهُ عِنْدِهِ السَّلَامُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَا فَعَلَهُ مَعَهُمْ كَانَ بِوَحْيٍ ، وَإِلَّا فَالْبَرُّ كَانَ يَقْتَضِي أَنَّ يَبَادِرَ إِلَى أَبِيهِ وَيَسْتَدْعِيهِ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَرَادَ تَكْوِيلَ أَجْرِ يَعْقُوبَ فِي مَحَنَتِهِ ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ فِي خَلْقِهِ .

(قَالُوا سَنَرَاوُدَ عَنْهُ أَبَاهُ) أَيْ سَنَجْتَهِدُ وَنَحْتَالُ عَلَى أَنْ نَنْزِعَهُ مِنْ يَدِهِ وَنَحْوُلَهُ عَنْ إِرَادَتِهِ فِي إِبْقَائِهِ عِنْدَهُ إِلَى إِرَادَتِنَا وَإِرَادَتِكَ . وَتَقْنَعَهُ بِإِرْسَالِهِ مَعَنَا كَمَا تَحِبُّ .
(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) ذَلِكَ لَا مُحَالَةَ وَلَا تَتَوَانِي فِيهِ .
(وَقَالَ لَفَتْيَانَهُ) أَيْ غُلَامَانَهُ الْكِيَالَيْنِ .

(أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ) أَيْ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ الَّتِي اشْتَرَوْا بِهَا الطَّعَامَ وَكَانَتْ نَعَالًا وَجُلُودًا فِي أَمْتَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .
(لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ) أَيْ لَسْكَي يَعْرِفُوا لَنَا حَقَّ إِكْرَامِهِمْ بِعَادَتِهَا إِلَيْهِمْ وَجَعَلَ مَا أُعْطِينَاهُمْ مِنَ الْغَلَّةِ مِجَانًا بِلَا ثَمَنِ ، إِذَا هُمْ رَجَعُوا إِلَى أَهْلِهِمْ وَفَتَحُوا مَتَاعَهُمْ فَوَجَدُوهَا فِيهِ .

ثُمَّ عَلَّلَ مَعْرِفَتَهُمْ لِلْبَضَاعَةِ الْمُرْدُودَةِ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ :
(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إِلَيْنَا طَمَعًا فِي بَرْنَا ، فَبِنَ الْعُوزِ إِلَى الْقُوْتِ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَى الرَّجُوعِ .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ ، وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

إِلَّا كَمَا أَمَرْتُمْكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۚ قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (٦٤)

الإيضاح

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم إن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : (إن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى) .

(فأرسل معنا أخانا نكتل) من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كت له الطعام إذا أعطيته ، واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

(وإنا له لحافظون) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لابد أن يرفض إجابتهم خوفاً عليه من أن يحدث له مثل ما حدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم :

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تعيونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلتم مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمنتم حفظه وقلتم (وإنا له لحافظون) ثم خنتم فى عهدكم وكذبتهم فأضعتهم يوسف ، فأنتم لا يوثق لكم بوعده ولا يطمأن منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(فأنه خير حافظا) أى فانا أنوكل على الله فى حفظ بنيامين لاعلى حفظكم . (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يبتلىنى بفقده كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم يرفقيا بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله مالا يخفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبْعِي ؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا وَنَزِدَادُ
كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا
مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ
اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

شرح المفردات

المتاع : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من
الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجاب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان من
بند إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل حمل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل
لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : « وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » أو سهل لا عسر
فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » والموثق : العهد الموثق ، إلا أن
يحاط بكم : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو
يهلك غالباً ، وكيل : أى مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

الإيضاح

(ولما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى ولما فتحو أوعية طعامهم
وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقد ثمن لما اشتروه من الطعام ، إذ أن يوسف
أمر فتيانه أن يضعوها فى رحالهم وهم لا يعلمون ذلك .

(قالوا يا أبانا ما نبغى ؟) أى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك
إلينا وكرمه الذى يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته فى الحوائج ، وقد كانوا حدثوا أباهم
بذلك على ما روى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلنا خير منزل

وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، ثم استدلوا على هذا بقولهم :

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

(هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ما نقول فى وصفه ومزيد إحسانه ونطقه لنا من شواهد الحال ما هو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظم مننه وجميل عطفه .

وهم بهذا يوثقون إلى أن ذلك كاف فى وجوب امتثال أمره والاتجاه إليه طلبا لمزيد من فضله ، فكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه ونفضل علينا . (ونمير أهلنا) أى فذبح ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه لهم من الميرة من مصر بلا ثمن .

(ونحفظ أخانا) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لانشقى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

(ونزداد كيل بعير) أى ونزيد على ما نأخذ لأنفسنا حمل حمل يكال لأخيذا ، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حمل بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حملا له .

(ذلك كيل يسير) أى إن حمل البعير كيل سهل لا عسر فيه على ذلك المحسن الجواد ، أو هو قليل لا يكثر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤثبن موثقا من الله) أى لن أرسله معكم حتى تعطوني عهدا موثقا بنأ كيدته بإشهاد الله عليه بالقسم به .

(لتأثبنى به إلا أن يحاط بكم) أى حتى تحلفوا بالله نترجعن به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ما جاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمُ احْصَوْا بِهِم » وقد يكون المعنى - إلا أن تغلبوا على أمركم وتقهروا فلا تقدرتون على الرجوع .

(فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) أى فلما أعطوه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه . وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكل إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطى من عهد .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ
مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ،
وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإيضاح

(وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أى وقال لهم يا بنى لا تدخلوا على هذا الوزير الكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه منفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم ما يكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لا تدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيد لكم الكائدون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) أى وما أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، وهو لا يريد إلغاء الحذر بتاتا فإنه تعالى أمر به وقال « خُذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب

العادية التى لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

(عليه توكلت) أى عليه دون غيره . ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما أتى وأذر .

وفى هذا إيماء إلى أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل . وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

(وعليه فليتوكل المتوكلون) لا على أمثالهم من الخلق ولا على أنفسهم .
فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازه ، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه أو ما لا تصل إليه يده .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوم) وهى الأبواب المتفرقة .
(ما كان يغنى عنهم من الله من شئ) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئاً من المكروه الذى يحول دون رجوعهم بنيامين ، واستبتم إلى السرفة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب كان عليماً بأن الحذر لا يغنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور نحوه ، ما أراد أن يكشف بها أحداً منهم ، وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بنيامين والعودة به .
قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفتنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قبل ذلك .

(وإنه لدو علم لما علمناه) أى لدو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحى وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقده أن الإنسان يجب عليه

في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه و يبلغ به إلى غايته ثم يتوكل بعد ذلك على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، وبين الانكسار على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفي تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ (٧١) قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَاجْزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

شرح المفردات

آوى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية (بالكسر) وعاء يسقى به ، وبه كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية $\frac{1}{13}$

من الإردب المصرى . وهو الذى عبر عنه بصواع الملك . وأذن مؤذن : أى ندى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشئ الذى تدركه الأذن . والعير : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها ، زعيم : كفيل أجعله جزءاً من يجمى به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك : شرعه الذى يدين الله تعالى به .

الإيضاح

(ولم دخلوا على يوسف أبى إليه أخاه) أى لم دخلوا عليه فى مجلسه الخاص بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوه . ضم إليه أخاه اشقيق بنيامين ، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أو ثوب ما كان يتوقع من الخدب عليه والعناية التى خصه بها .

(قال إني أنا أخوك) يوسف الذى فقدتموه صغيراً .

(فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى فلا يحزنك بعد الآن بؤس أى مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لى ولك .

روى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون أجر ذلك عندى فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حياً لأجسنى معه . فقال يوسف بقى أخوك وحيداً ، فأجسه معه على مائدته وجعل يؤاكله . وهان أنتم عشرة فليزىل كل اثنين منكم بيتاً (حجرة) وهذا لا ثانى له فيكون معى . فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده . فقال لى عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لى هلاك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك المالك ؟ قال من يجد أخاً مثلك ؟ ولكن لم يبدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إني أنا أخوك أخ .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) أى لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإئناء الذى يكيل به الطعام في رحل أخيه .

وفى قوله : جعل السقاية ، إيماء إلى أنه وضعها بيده ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثانى لئلا يطلعوا على مكيدته .

(ثم أذن مؤذن) أى وفد افتقد فتيانه السقاية ، لأنها الصواع الذى يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود فى كل زمان ومكان قائلا :

(أيتها العير إنكم لسارقون) أى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحبوا حتى ننظر فى أمركم .

(قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟) أى قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه : أى شئ نفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

(قالوا نفقد صواع الملك) أى نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

(ولمن جاء به حمل بعير) أى ولمن أتى به حمل جل من القمح ، وفى هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحير .

(وأنا به زعيم) أى قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير ، أبعده حلوانا لمن يجىء به ، سواء أكان مفقودا أم جاء به غير سارقه .

(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجئنا فى امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه مدء على حقوق الناس .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرقة وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

(قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

(فهو جزاؤه) تقرير للحكم السابق وتأكيده بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة . (كذلك نجزى الظالمين) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزى الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسارق .

وهذا تأكيدهم بعد تأكيدهم لثقتهم ببراءة أنفسهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة . (ثم استخرجها من وعاء أخيه) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه .

(كذلك كدنا ليوسف) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف وألمنناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله .

ذاك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرطوا فى يوسف . واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، وإن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتا .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى وما كان له ولا مما تبيحه أمانته

لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به وهو لا يبيح استرقاق السارق،
فما كان باليسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على
أنفسهم بشرعية يعقوب التى تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكورة على حسب الظاهر ،
لأنها تهمة باطلة . وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحي من
الله - بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيثته فقال :

(إلا أن يشاء الله) أى إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه . لأنه هو الذى
اخترع هذه المسكيدة .

(ترفع درجات من نشاء) أى ترفع من نشاء درجات كثيرة في العلم والإيمان
ونريه وجوه الصواب في بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته
في كل شيء . وفي هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات .
(وفوق كل ذى علم عليهم) أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع
درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علما وهو فوق كل ذى علم .
وخلاصة ذلك - أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَاسْرِّهَا يُوسُفُ فِي
نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَاسِيخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ
مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ
إِنَّا إِذَا إِذَا لَطَّالِمُونَ (٧٩) .

الإيضاح

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أى قال إخوة يوسف ، إن

يسرق بليامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت وراثه من أمهما إذ هما لا يتفردان عما إلا بها . وفي قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كامنا في قلوبهم ، لاختلاف الأمهات ، ولمزيد محبة الأب لهما .

وأصح ما قيل في سرقة يوسف ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجدّه أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فعيّره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها ، فلم يحب أحد شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أخية سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتفت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لسلّم لي أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال له : أنتِ وذاك إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذى عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شيء منها على سرقة حقيقية .

(فأمسرها يوسف في نفسه) أى فأضمر مقالتهم في نفسه ولم يجهم عنها .

(ولم يبدها لهم) أى ولم يؤاخذهم بها لا قولاً ولا فعلاً صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ما أسره بقوله :

(قال أأنتم شر مكانا) أى لكنه قال فى نفسه أأنتم شر فى مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تفترونه ، إذ أنكم سرقتم من أيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق ، وقتم لأبيكم فدأكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العليم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتكم سرقته عليه . ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علاته التى يتعلل بها عن شقيقه الهالك ، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .

(نأخذ أأخذنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا ذلك بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ، فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فأجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .

فأجابهم عن مقالتهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأننا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نأخذ بغيره .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق .

(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَضَعُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
 آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ،
 فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا آبَاءَنَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا عَمَّا عَمَلْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْتَشَلَّ الْقَرْيَةَ
 الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلَى سَوَّلْتُ
 لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ
 هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ وَإِيسَى
 عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) .

شرح المفردات

استأذنوا : أى يسأوا ، كاملاً . خلصوا : انفردوا عن الناس . نجياً : أى
 متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أى فى الرأى والعقل وهو يهوذا ،
 وموثقاً : أى عهداً يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا
 عهد أبيكم فيه ، أبرح : أفرق ، أمراً : أى كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف :
 أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أى مملوء غيظاً على أولاده ممسك له فى قلبه ،
 القرية : اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً ، ويستعمل فى كل واحد
 منهما قاله الراغب .

الإيضاح

(فلما استأذنوا منه خلصوا نجياً) أى فلما استحکم اليأس فى أنفسهم من قبول
 العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وأنه إن فعل

غيره يكون ظالماً بمقتضى شريعته ملث مصر - اعتزلوا الناس ولم يخالطوا أحداً ، وانفردوا للمناجاة والتشاور في أمرهم .

وخلاصة ذلك - إن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأذن رأسه من رأسه وأرهموا آذانهم للنجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) أى قال كبيرهم عقلاً ورأياً وهو يهوذا : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردته إليه إلا أن يحاط بكم . وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

(ومن قبل ما فرطتم في يوسف) أى ومن قبل هذا قد قصرتم في حفظ يوسف بعد وعدهم المؤكد بحفظه ، وكيف إن أباكم قد قاسى من الحزن ما قاسى . (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى) أى فلن أفارق أرض مصر ، حتى يأذن لى أبى بتركها والرجوع إليه وبنيامين فيها ، أو يحكم الله لى بأمر من عنده مما هو غيب فى علمه ، كأن يترك العزيز لى أخى بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

(وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم بأن يقولوا لأبيهم ما يزيون به التهمة عن أنفسهم قال : (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) صواع اللث فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر فى مصر عملاً بشريعته ، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استبأننا إياها . (وما شهدنا إلا بما علمنا) أى وما شهدنا عليه بالسرقه بسمع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

(وما كنا للنائب حافظين) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك الموائيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التى كُنّا فيها) أى واسأل أهل القرية التى كُنّا ننتار فيها وهى مصر ، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .

(والمير التى أقبلنا فيها) أى ولما سأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا . ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(وإنا لصادقون) فيما أخبرتك به . سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا .

وبعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :

(قال بل سأت لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيدا آخر فنفذتموه ، ومما يقوى ذلك عندى أنكم تقسم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيموه به وليس ذلك من شريعته .

(فصبر جميل) أى فحالى على ما دأبى من فقدته صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية لأحد . ل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلى يوسف وبنىامين والأخ الثالث الباقي بمصر . وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم ، أى إنه العليم بوجدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فىنا حكمة بالغة وهو الحكيم فى أفعاله فينتلى ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سننه أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها الخالص منها . كما قال (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاوروا به .

(وقال يا أسفا على يوسف) أى يا حزننى ويا حسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك

والحال مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتوني من مصر يشرى لقاء يوسف ،
نغاب أملى وحل محله ذهاب ابنى السلى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ،
لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سوידاء القلب وزواياه ، وحل غيره
دون ذلك .

(وابتضت عيناه من الحزن) أى أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر مع
بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما معافى ، قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا:
البياض المصحوب بضياء البصر غالبا معناه (الجلو كوما) والمعروف عند الاختصاصيين
فى أمراض العيون أن أهم سبب له هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب
كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لاسيما الحزن
(الدكتور مار) اه .

(فهو كظيم) أى معمء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛
والحزن عرض طبيعى للنفس ولا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل
ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم
وقد جعلت عيناه تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « يا ابن
عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول
إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما .

وفى التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام
قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم
رابعا ، فأوحى الله إليه أن : يا داود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية
لم تنك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنك ، وإن
يعقوب أخذت منه حبيبته فابتضت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تنك » قال الحافظ
ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذى يبيع اه .

قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
 مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
 وَلَا تَبَيَّسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ . إِنَّهُ لَا يَبْيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ (٨٧)

شرح المفردات

تفتأ : أى لا تفتأ بمعنى لا تزال ، والحرض : المرض المشفى على الهلاك ، من
 الهالكين : أى الميتين ، البث فى الأصل : إثارة الشئ وتفرقة كبث الريح التراب ،
 ثم استعمل فى إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر ، وتحسسوا : أى تعرفوا
 أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر ، والروح : التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا
 تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

الإيضاح

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)
 أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال يا أسفا على يوسف : تالله
 لا تزال تذكر يوسف وتلهج به حتى تصير بذلك إلى مرض لا ننتفع بنفسك معه
 أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك - إنك الآن فى بلاء شديد ونخاف أن يحصل لك ما هو أكثر
 وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

(قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) أى لا نلومونى وأنا لم أشك إياكم

ولا إلى أحد من الخلق حزني الذي أمضى كتمانته ، فأفسدته بهذه الكلمة (يا أسفا على يوسف) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) أي وأنا أعلم في ابتلائي بفراقه مع حسن عاقبته ما لا تعلمون ، فأعلم أنه حيّ يرزق ، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك . وأن بنيامين قد سرق فاسترق ، وتحسبون أنني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء - أمضاء ولا مرد له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغة ، وإني لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم في يوسف من قبل ، وبأخيه الذي كان يساينى عنه من بعد .

وعن ابن عباس في تفسير الآية : أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وثنى سأسجد له . (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أي اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارهما بحواسكم من سمع و بصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما .

(ولا تيأسوا من روح الله) أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ويطمئن به القلب .

(إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون ما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي ، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر أو جلب خير يحضوا أنفسهم (انزعروا) لها وحزنا .

أما المؤمن حقا فلا يقنطه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفرجه لكرمه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَّا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ
مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَفِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)
 قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
 إِنَّهُ مَنَّ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
 الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي
 هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَتَّعِمُهُ (٩٣) .

شرح المفردات

الضر: أى ضر الجماعة من الهزال والضعف ، والمزجاة الرديئة التى يدفعها التجار
 من أزعج الشئ وزجاء: إذا دفعه برفق كما قال : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا»
 وآثر: أى اختارك وفضلك ، والخاطى: هو الذى يأتى بالخطيئة عمدا ، والخطى:
 من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخط: الذنب ، وخطأته: قلت له أخطأت ،
 ولا تثريب: أى لا لوم ولا تأنيب وتثريب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه ،
 ويأت بصيرا: أى يصير بصيرا فى الحال ، أو يأت إلى وهو بصير .

الإيضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى بعد أن قبوا وصية
 أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر - دخلوا
 على يوسف عليه السلام فقالوا له يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من
 الجماعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الخال وقلة المال وشدة الحاجة
 وغير ذلك مما يرقق القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه - ليروا

تأثير الشكوى فيه ، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا وقد كان أبوم يرجح أنه هو يوسف ، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعفاف فيه .
(وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها احتقاراً لها .

(فأوف لنا السكيل) أى فآتته كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك .
(وتصدق علينا) بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تغمض عن رداءتها .
(إن الله يجزى المتصدقين) فيخفف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .
وقد بالغوا في الضراعة والتذلل لما كانوا يريدون من تأثير ذلك فى ملامح وجهه وجرس صوته ومغالبة دمه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم .
(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أى قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .
(إذ أنتم جاهلون) قبح ما فعلتموه فى حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين وما يجب من رحمة القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك - إنكم كنتم فى حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق وبعاقبة البغى والعقوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة .
وقد قال لهم هذه المقالة تمهيداً لتعريفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن بلغ الكتاب أجله وبلغت به وبهم الأقدار غايتها ولم يبق بعد هذا إلا التصريح وتأويل رؤياه التى كانت السبب فى كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيراً مجملًا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب فى ذاته وبسوء عاقبته لتمكن نزع الشيطان من أنفسهم الأماره بالسوء ، وقد ذكرهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقرير والتوبيخ كما يدل عليه نفي التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية : أنتم من جهة الدين وكان حلما موقفا فكلهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه الثائب ، فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه فذلك أقدمتم عليه - يعنى هل علمتم قبحه فباتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لامعاتبه وشرىبا ، إثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشقى الغيظ الحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ، والله حصا عقوبهم ما أوزنها وأرجحها اه .

كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية - مصداقا لما أوحاه الله إليه حين ألوه فى غيابة الجب من قوله « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواء ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أنئك لأنت يوسف ؟) أى قالوا من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف - عجبا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكنم نفسه . (قال أنا يوسف) الذى ظلمتمونى غاية الظلم وقد نصرنى الله فأكرمى وأوصلنى إلىسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بإلقائه فى غيابة الجب ثم صرت إلى ما ترون .

(وهذا أخى) الذى فرقت بينى وبينه وظلمتموه ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد منّ الله علينا) فجمع بيننا بعد الفارقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآنسنا بعد الوحشة ، وخلصنا مما ابتلينا به .
وفيه إيماء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين لأنه أخى لا أخوكم .

تفسيه

فإن قيل لم يعرف يوسف إخوته بنفسه في أول مرة ليبشروا أباهم به وبما هو عليه من حسن حال وبسطة جاه فيكون في ذلك السرور كل السرور له ؟ فالجواب عن ذلك ما أجاب به ابن القيم في كتابه [الإغاثة الكبرى] قال رحمه الله : لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحلّ ذلك الحل ، وهذه عادة الله في الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسبابا من الحن والبلايا والمشاق ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن فاسى مع أعداء الله ما قاساه . وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المكروهة في خبايا الأسباب المشتهة المستتدة ، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره والنار وحفها بالشهوات اه .

(إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطق به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو : من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى ، ويصبر على ما أصابه من الحزن وفتن الشهوات والأهواء ، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل آوانه ، فإن الله لا يضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتيه أجره فى الآخرة .

وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله ، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمانة بالسوء ومتبعاً لنزغات الشيطان فإن عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، إلا من تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى .

(قالوا لله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له : لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

(وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنعنا بك وتفرقنا بينك وبين أخيك إلا متعمدين للخطيئة . ولا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس .
و بعد أن قدموا له المذخرة أجابهم بالصفح عما فعلوا .

(قال لا تريب عليكم اليوم) أى لا تؤلم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظنته ، ولكن لكم عندى الصفح والعفو . وهو إذا لم يثرَب أول تقائه واشتعال ناره ، فبعده أولى .

وقال السيد المرتضى : إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعاً

كأنه أريد بعد اليوم اه .

(يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يغفو الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال : « ماذا تظنون أنى

فاعل بكم؟ قالوا نظن خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: وأنا أقول كما قال أخى يوسف (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)، فخرجوا كأنما نشروا من القبور. أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي عن أبي هريرة.

روى أن يوسف عليه السلام لما عرّف نفسه إخوته سأله عن أيهم فقالوا ذهب بصره فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال:

(اذهبوا بقميصي هذا) الذى على بدنى أو يبدى.

(فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) أى ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصر بصيرا. وقد علم هذا إما بوحي من الله، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور، وقوى بصره وزالت منه هذه الغشاوة التى رانت عليه، والقوانين الطبية تؤيد هذا، كما سيأتى بعد.

(وائتوني بأهلكم أجمعين) من الرجال والنساء والذرارى وغيرهم، وقد روى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا.

وَلَمَّا فَصَّاتِ الْمَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّ
تُفَنِّدُونِ (٩٥) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ
الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ
(٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

شرح المفردات

يقال فصل عن البلد: إذا انفصل وجاوز حيطانه، وتفننون: أى تسبونى إلى

الفند؛ وهو فساد الرأى وضعف العقل والخرف من الكبر، فى ضلالك : أى فى خطئك
أو فى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أى رجع .

الايضاح

(ولما وصلت العير فل أبوم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى ولما
انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام ، قال أبوم لمن حضره
من حفدته ومن غيرهم : إني لأشم رائحة يوسف كما عرفتها فى صغره ، لولا أن تنسبونى
إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الكبر ، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته
حقيقة وأنه حى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته .

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح فجاء يعقوب بريح
قيص يوسف ، قال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، فوجد ريحه من ثمانية
أيام . وفى رواية من ثمانين فرسخاً ، والمراد من مسافات بعيدة جدا .

(قاموا تالله إنك لفى ضلالك القديم) أى قال حاضرو مجلسه : تالله إنك
لفى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حى يرجى لقائه وقد قرب .

ولا غرو فلا يخلى أن يقول فى الشجى ما شاء ، فأذنه عن العذل صماء

سلوتى عنكم احتمال بعيد وافتضاحى بكم ضلال قديم

كل من يدعى المحبة فيكم ثم يخشى اللام فهو مبهم

قال قتادة فى تفسيرها : تالله إنك لفى ضلالك القديم أى من حب يوسف
لا تنساه ولا تسأوه اه ، قالوا لو ألهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى فلما جاء البشير وهو ابنه

يهوذا الذى يحمل القميص من يوسف (وهو الذى حمل إليه قميصه الملطخ بالدم
الكذب) ليحو السئة بالحسنة ، ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما

كان - بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لا تتحسن أعراض مرض (الجولكوما) أو شدة توتر العين أو تنقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى (كن فيكون) وهى خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ولكن فى طريق الشفاء - وما أعظم إعجاز القرآن الذى وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هذا المرض فى ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اهـ .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعى من ربه بصدق مايقول .
 (قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) أى قال لهم : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتمكم عن اليأس من روح الله : إني أعلم بوحى الله لامن خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام - وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

نبذة فى تحليل شم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتجمله من إفريقيا مثلاً إلى أوروبا وهى مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهى بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة ، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شماً . فالكلب ذو حاسة قوية فى الشم حتى نلدر به الآن رجال الشرطة ويستخدمونه فى حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلم فيشم المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلاً قوياً على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلاً قاطعاً فى بعض الدول . والروائح منها القوى والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصاب ثوبه منها ، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب لآمن السنن العادية والحوادث التى تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلمنا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد ، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره فى أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه - شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى - لم يكن ذلك مجانباً للصواب ولا معارضاً للعقل ولا ناقضاً لما يثبت العلم ، أو قلنا بأننا نتقبل هذا بدون تحليل ولا تصوير لسكيفية ذلك - لم نبعد عن العقل ولا عن العلم ، إذ لا خلاف بين العلماء فى أن ما يجمله الباحثون أضعاف ما يعرفونه .

وعلى الجملة فعلمنا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث فى كنهه أو صفته مادام ذلك داخلاً فى حيز الإمكان .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير . يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عقوبك وإيذاء أخويننا ، إنا كنا متمعدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطأبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :
(قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وعندهم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لا يقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة :
(١) إن حال أبيهم معهم حال الربى المرشد للمذنب ، لا حال المنتقم الذى يخشى أذاه ، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يجعل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع والازم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرها ، فلا يمتحى إلا بتوبة نصوح تبحث الجذور التى عقلت بالأنفس والأرجاس التى باضت وأفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من الربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التى تغفر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبث فى الاستغفار لهم إلى أجل ليعلمهم عظيم جرمهم وأعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضلته ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسيء ضعيف لديه ، عظم جرمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة ، وفي هذا من ضروب التربية أكبر العظة والعبرة ، ولو آخر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم ولخافوا شر الانتقام ، فكانوا في قلق دائم وتبليبل بالاضطراب نفس فكانت معرفتهم له عذابا فوق العذاب الذى هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حائلة بالاطمئنان وقرة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَإِمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

شرح المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنقهما ، ورفع أبويه : أى أضعدهما ، والعرش كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخرؤا له سجدا ، تأويل رؤى اى : أى مآلها وعاقبتها ، وأصل النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجرى ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحشه على المعاصى ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته اثنوى بأهلكم أجمعين - أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان فأصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف بقرب مجيئهم خرج للقائهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه لقاء نبي الله يعقوب عليه السلام .

الإيضاح

(فلما دخلوا على يوسف أدى إليه أبويه) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام والمعنى - بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المفوض المستقل فى أمرها - أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها - ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهذا من شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقون .

وفى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم بينيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبويه وأهلهم ، فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان (إقليم الشرقية الآن) وأرسل إليهم العربات لتحصيهم وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شديس يوسف على مركبته وصعد ليلاقى إسرائيل أباه فى جاسان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلا ، ثم استأذنه ليهذب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم فيقرهم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، وبعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

(ورفع أبويه على العرش) أى أضعده أبويه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكريما لهما فوق ما فعله بالإخوة .

(وخرأله سجدا) أى أهوى أبواه وإخوته وخرأله سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد نفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه .

(وقال يآبأب هذا تأويل رؤى من قبل) أى هذا السجود منكأ ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاقبة التى آأت إليها رؤى التى رأيتها من قبل فى صغرى « إبنى رأيتُ أأدَ عشرَ كوكباَ والشمسَ والقمرَ رأيتُهُم لي سآجدين » .

(قد جعلها ربى حقا) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأنى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنتشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

(وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) أى وقد أحسن بى ربى إذ أخرجنى من السجن وسما بى إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شطف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضرة حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتعاونون على ترقى العلوم والصناعات . ولم يذكر له إخراجه من الحب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم .

(٢) إنه لو ذكر حادث الحب لكان فى ذلك تثريب لإخوته وقد قال (لا تثريب عليكم اليوم) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لا ملكا .

(٤) إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارّة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .

وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .

(من بعد أن زرع الشيطان بينى وبين إخوتى) أى من بعد أن أفسد الشيطان ما بينى وبين إخوتى من عاطفة الأخوة ، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

(إن ربى لطيف لما يشاء) أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده ، فينفذ ما يشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلافه أن الإلقاء فى الحب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزج فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغايتها ، الحكيم الذى يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العاقبة للمتقين .

وبعد أن حمد يوسف ربه على لطفه فى مشيئته وعلمه وحكمته .. تلا ذلك بالدعاء فقال :

طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَآيِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

الإيضاح

(رب قد آتيتنى من الملك) أى قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ، و بسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى ملك مصر وجعلتنى متصرفا فيها بالفعل وإن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها حاسد ولا باغ إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد .
(وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى وعلمتنى ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصادق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .
(فاطر السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما .

(أنت ولى فى الدنيا والآخرة) أى أنت متولى أمورى ومتكفل بها ، وأنت موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء وإن نعمك لتغمرنى فى الدنيا ، وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .
(توفنى مسلما) أى اقبضنى إليك مسلما ، وأتم لى وصية آبائى وأجدادى .
« وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(وألحقنى بالصالحين) أى وألحقنى بصالح آبائى إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم

من أنبيائك ورسلك ، واحشرنى فى زمريهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » أى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام
ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَتَوْا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

الإيضاح

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر وآتاه الملك والحكمة فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الحب - كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكننا نوحيه إليك لنثبت به قؤادك ، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك ، وتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

(وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف فى غيابة الحب ، يبعثون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقوله تعالى بعد سياق موسى « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا» الآية ، وقوله فى هذه القصة « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا - إن الله أطلع رسوله على أنباء ما سبق ليكون فيها عبرة للناس فى دينهم ودينهم ، ومع هذا ما آمن أكثرهم ، ومن ثم قال :
(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك - بمصدقيك ولا متبعيك .

قال الرازى : إن كفار قرىش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى فى قوله « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(وما تسألهم عليه من أجر) أى وما تسأل هؤلاء الذين يتكفرون بنبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة - إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك عن أموالنا إذا سألنا عن ذلك ، فمالك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن ملىء بنحو هذا كما فى سورتي هود والشعراء وغيرها .

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة .
وفى الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مَعْرُضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

شرح المفردات

وكاين : بمعنى كثير ، والآية هنا: الدليل الذى يرشد إلى وجود الصانع ووحده
وكمال علمه وقدرته ، يمرّون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لا يعتبرون بها ،
والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمهم ، وبغثة : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون به، حرصت على إيمانهم
ولا يتأملون فى الدلائل الدالة على نبوتك - ذكر هنا أن هذا ليس بيدع منهم ،
فأكثرهم فى غفلة عن التفكير فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه فى السموات
من كواكب ثابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفى الأرض من حدائق
وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زائرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

الإيضاح

(وكاين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون) أى وكما
فى السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس
وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار يمرّ عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذى خلقها وخلق كل شىء فأحسن تدبيره .

وعلى الجملة فما فى السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع -
ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم ما فى السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره ، يتمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد فى الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار فى الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » إلا وهم مشركون به فى عبادتهم سواء من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولداً ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون فى تليبتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك . إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يعبد مع الله غيره ، وفى صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قَدْ ، قَدْ) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود « قالت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى فى عبادتهم سر يان السَّم فى الدسم .

قال ابن القيم في إغاثة اللفهان : وما زال الشيطان يوحى إلى عباد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها - مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه - فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذ عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اهـ .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بحجاء فلان عندك أو بحق فلان أو بحرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبراني من حديث فاطمة بنت أسد من قوله (بحق نبيك والأنبياء من قبلى) فقد طعن فيه رجال الحديث ، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل وصالح الصالحين ليست من أعمال السائل التى يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله . (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ؟ قُلْ هُمْ بِمُجْزِئٍ . أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبایمانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة ذات الدّر) فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته (لقمته) إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة في إبهام وقتها أن الفائدة لا تتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشرور والمعاصي .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لا يفكرون فيما في السموات والأرض من آيات، ولا يعتبرون بما فيها من علامات، تدل على أن الله هو الواحد الأحد، الفرد

الضمد - أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هي الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده يدعوبها هو ومن اتبعه على بصيرة وبرهان .

الإيضاح

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أى قل أيها الرسول: هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هي سنتي ومنهاجي ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدي الحجة والبرهان على ما أقول ، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني . والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . (وسبحان الله) أى وأنزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك في ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

(وما أنا من المشركين) أى وأنا بريء من أهل الشرك به است منهم ولا هم مني .

وفي قوله : (على بصيرة) إيماء إلى أن هذا الدين الخفيف لا يطلب التسليم بنظريات ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة وبرهان ، فقد ذكر مذاهب المخالفين وكرر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أقطار العقول وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوي عن ابن عباس في تفسير قوله : « وَمَنْ اتَّبَعَنِي » يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة ، وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الإيمان ، وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود . أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

كانوا أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله
لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرم ، وتمسكوا
بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .

وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لو أراد إرسال
رسول لبعث ملكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً »
فرد سبحانه عليهم بقوله :

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى) فكيف عجبا
منك ولم يعجبوا من قبلك من الرسل ، ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَامٌ لِّأَيِّ كُؤُنِ الطَّعَامِ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله :
« وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ
بِدْعَا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت في كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف
والأنبياء والشعراء ، وقال الحافظ بن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسلا من الرجال
لا من النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح
إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع اه .

وفى قوله : (من أهل القرى) أى من أهل الأمصار دون البوادي إيحاء إلى أن
سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله
عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال :
(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) أى أفلم يسيروا
هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويححدون نبوتك وينكرون
ما جئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من
أوقفنا بهم من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما

أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، وجمودهم بآياتنا ، ويعتبروا بما حل بهم .
ثم رغب في العمل للآخرة فقال :

(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله
واتقوا الشرك به وارتكبا الآثام والمعاصي - خير من هذه الدار للمشركين المنكرين
للبعث المكذبين بالرسل والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .
فإن نعيمها البدني أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته وخلوه عن المنقصات
والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحي من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته .

(أفلا تعقلون ؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لو علقتم ذلك لآمتهم .
ثم ذكر سبحانه تثبيتنا لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى
ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعِدَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »
وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى البطلون
في تكذيبهم فقال :

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنَجَّيْنَا مِنَ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ
فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (١١١) .

شرح المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين وإما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ،
والألباب : العقول واحدها لب ، وسمى بذلك لكونه خالص مافي الإنسان من قواء ،
والعبرة : الحال التي يتوصل بها من قياس ما ليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

الإيضاح

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فكذبوا بما جاءهم به ، وردوا ما أتوا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم لانهما كهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم - جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر - جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بغتة ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لا تظلم فيها ولا محاباة ، وبأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ » وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين للمعاند من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا

استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم -
جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا (مخففة)
أخرج ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن
يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءهم به جاءهم نصرنا ، ونحوه
عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة اهـ .
(فنجى من نشاء) أى فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم على
حسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون
النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم
الذين أجزموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .
وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم و يقيموا عليهم الحجة وينذروهم
سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجى الله
الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من
المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) قص الخبر : حدث به على أصح
الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً ، أى لقد
كان في قصص يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوى العقول الراجحة
والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التى تدل عليها أوائلها
ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات ،
ومن ثم لا يفيدهم النصح .

وجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في غيابة
الحب وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن ، وتمليك مصر بعد أن بيع بالثلث البخس ،

والمتمكين له في الأرض من بعد الأسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والحجى بهم من الشقة البعيدة النائية - إن الذي قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له في البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرت به الشدائد ، وأنت دونه الأيام والحوادث .

(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه) أى ما كان هذا القصص حديثا يخلق ويفترى لأنه نوع أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار - ممن لم يطاع الكتب ولم يخالف العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحي والتنزيل ، ومن ثم قال ولكن تصديق الذي بين يديه أى من الكتب السماوية التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزيور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذي عندهم ، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لحوها وإزالتها ، للإثباتها وتصديقتها .

(ونصيب كل شيء) من أمر الله ونهيه ، ووعدته ووعيدته . وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة في القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر الدين ، وقد أسهب في موضع الإسهاب وأوجز حيث يكفي الإيجاز ، ففصل الحق في العقائد بالحجج والدلائل ، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهاات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع .

(وهدى) أى وهو هدى لمن تدبره ، وأنعم في النظر فيه وتلاه حق تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، في الدين والدنيا .

(ورحة لقوم يؤمنون) أى وهو رحمة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعهم
في دينهم ودنياهم .

والخاصعون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم
وأعراضهم ، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم ،
يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التى تفسد الأخلاق وتبث بالفضائل .
نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا في زمرة
الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين يوم تسودّ وجوه
وتبيضّ وجوه وأن يجعل خواتمنا خير الخواتم في الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف
مع أبويه وإخوته كذلك .

إجمال ما جاء فى سورة يوسف

- (١) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .
- (٢) نهى يعقوب لولده عن قصّة قصصه على إخوته .
- (٣) تديريهم المكيدة ليوسف وإلقائه فى غيابة الحب .
- (٤) ادعائهم أن الذئب قد أكله .
- (٥) عشور فافلة ذاعبة إلى مصر عليه والتقاطها له .
- (٦) بيعها إياه فى مصر بثمن بخس لعزيز مصر .
- (٧) وصية العزيز لامراته بإكرام مثواه .
- (٨) مراودة المرأة له عن نفسها وإعداد الوسائل لذلك .
- (٩) تمنّعه من ذلك إكراماً لسيدته الذى أكرم مثواه .
- (١٠) قدّها لقميصه وادعائها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .
- (١١) شهادة شاهد من أهلها بما يحلى الحقيقة .
- (١٢) افتضاح أمرها فى المدينة لدى النسوة .
- (١٣) تديريها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها .
- (١٤) إدخاله السجن اتباعاً لمشيئتها .

- (١٥) تعبيره رؤيا فتيتين دخلا معه السجن .
- (١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرا .
- (١٧) إرشاد أحد الفتيتين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبّر لها .
- (١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلاصه لنفسه .
- (١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيئنا على ماليها .
- (٢٠) مجيء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم .
- (٢١) إرجاع البضاعة التي جاءوا بها .
- (٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم .
- (٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة .
- (٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه .
- (٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا .
- (٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده .
- (٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه .
- (٢٨) وجود غشاوة على عيني يعقوب من الحزن .
- (٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته .
- (٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا .
- (٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .
- (٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش .
- (٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل .
- (٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة .
- (٣٥) في هذا القصص إثبات لنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .
- (٣٧) لم يرسل الله إلا رجالا وما أرسل ملائكة .
- (٣٨) نصر الرسل بعد الاستيثاق .
- (٣٩) في قصص الرسل عبرة لأولى الألباب .

سورة الرعد

هى مدنية وآيها ثلاث وأربعون ، نزلت بعد سورة محمد ، ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه أجل فى السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية فى قوله « وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ثم فصلها هنا أتم تفصيل فى مواضع منها .

(٢) إنه أشار فى سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَأَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر فى سالفها .

(٣) إنه ذكر فى كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم ، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا وأخذهم الله بأخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزي على الكافرين والنصر لرسله والمؤمنين ، وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وثبتت لقلبه .

(٤) جاء فى آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وفى أول هذه وهو قوله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) .

الإيضاح

(اللر) قلنا فيما سلف إن هذه الحروف فى أوائل السور حروف تنبيه كلاً ونحوها ، وقرأ بأسمائها ساكنة فيقال «ألف لام ، ميم ، را» ؛ كما قلنا إن كل سورة بدئت بهذه الحروف ففيها انتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه .

(تلك آيات الكتاب) أى آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال المستغنى عن الوصف بين الكتب السماوية الجدير بأن يختص باسم « الكتاب » .

(والذى أنزل إليك من ربك الحق) أى وكل القرآن الذى أنزله إليك ربك حق لا شك فيه ، وهذا كالأجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم فأثبتته للقرآن جميعه فلا تختص به سورة دون أخرى .

وهذا الأسلوب جار على سنن العرب فى مخاطبتهم فقد قالت فاطمة الأعمرية وقد سئلت عن بنيتها ، أى بنيك أفضل ؟ (ربيعة ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها) فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجمت القول وأثبتت لهم الفضل جميعا .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك ، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف المصور والأزمان ، والتى لو سار الناس على سننها لسعدوا فى الدنيا والآخرة ؛ وقد سلك المسلمون سبيلها فى عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وامتلكوا أكثر المعمور فى ذلك الحين وثلوا عروش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب ، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم

بأنها كانت سياسة عدل ورفق ، وأخذ على يد الظالم لإنصاف المظلوم ، فله دين رفع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين ؛ ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالم دينهم وألقوه وراءهم ظهريا لحاق بهم ما كانوا يكسبون ، وصاروا أدلة بعد أن كانوا أعره ، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة ، تابعين بعد أن كانوا متبوعين « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » والآية بمعنى قوله « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَقَاءُ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

شرح المفردات

العمد: السوارى واحدها عمود كأدم وأديم، والتسخير: التذليل والطاعة، والتدبير: التعريف للأمر على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات: هي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذي لا شك فيه ، والمد : البسط ، والرواسي: الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل واحدها راسية ، والأنهار

واحداهن : وهو الجرى الواسع من الماء ، زوجين اثنين : أى ذكر وأنثى ، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجاً لأشاه ، والأنثى زوجاً وزوجة لذكرها ، يغشى يغطى ، قطع : أى بقاع مختلفة ، متجاورات : أى متقاربات ، جنات أى بساتين ، صنوان : هى النخلات يجمعها أصل واحد وتشعب فروعها واحداهن صنو وفى الحديث « عم الرجل صنو أبيه » والأكل (بضمين وبتسكين الثانى) : ما يؤكل فالمراد به هذا التمر والحب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون ، أعقبه بذكر البراهين على الترحيد والمعاد فاستدل بأحوال السموات وأحوال الشمس والقمر وأحوال الأرض حبالها وأنهارها وأزهارها ونخيلها وأعنابها واختلاف ثمراتها وتنوع غلاتها على وجود الإله انقادر القاهر الذى بيده الخلق والأمر ، وبيده الضر والنفع ، وبيده الإحياء والإماتة ، وهو على كل شىء قدير .

الإيضاح

ذكر سبحانه أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، بعضها سماوى وبعضها أرضى ، وذكر من الأولى جملة أمور :

(١) (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) أى إنه تعالى خلق السموات مرفوعات عن الأرض بغير عمد بل بأمره وتسخيره ، على أبعاد لا يدرك مداها ، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها ، ولا علاقة من فوقها تمسكها ، وقد تقدم هذا بإيضاح فى سورة البقرة .

(٢) (ثم استوى على العرش) أى ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من

النظام وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان ، وقد سبق تفصيل هذا في سورتي الأعراف ويونس .

(٣) (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وذلّل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، فكل منهما يسير في منازله لوقت معين ؛ فالشمس تقطع فلـكها في سنة ، والقمر في شهر لا يختلف جرى كل منهما عن النظام الذى قدر له ، وإليه الإشارة بقوله « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقوله « وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ » وإيضاح هذا ذكر في سورتي يونس وهود ، وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال :

(يدبر الأمر) أى إنه تعالى يتصرف فى ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه فهو يميمت ويحيى ويوجد ويعدم ويغنى ويفقر وينزل الوحي على من يشاء من عباده ، وفى ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة ، فإن اختصاص كل شىء بوضع خاص وصفة معينة لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك ، فتديره لعالم الأجسام كتديره لعالم الأرواح وتديره للكبير كتديره للصغير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير شىء عن تدبير آخر كما هو شأن المخلوقات فى هذه الدنيا ، وكذلك هو دليل أيضا على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته لا يشبه شيئا من مخلوقاته .

(يفصل الآيات) أى يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق ، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لبعضها عن بعض ، فالجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة فى حركاتها بنظام خاص بواسطة الجاذبية لاتحاد عن سننه ولا تجد معدلا عن السير فيه على حسب النهج الذى قدر لها ، ولا تزال كذلك حتى ينتهى العالم ، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها ، واختلال لحركاتها : « إِذَا السَّمَاءُ انْطَرَقَتْ . وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْتَهَرَتْ » .

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات يادّن الواحد الأحد ،
فالزراع يحرق أرضه ويلقى فيها الحب ثم يسقيها ويضع فيها السمّاد ويوالى سقيها حتى
تؤتى أكلها ، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة باء صاحب الزرع بالخسران فلم يحصل
على شيء أو حصل على القليل التافه الذى لا يعادل التعب والنصب الذى فعله .
ثم أبان سبحانه أن هذا التدبير للأمر والتفصيل للآيات الدالين على القدرة
الكاملة والحكمة الشاملة ، جاء لحكمة اقتضتهما وهى الإيقان بالبعث لفصل القضاء
ومجازاة كل عامل بما عمل : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » فلما نعيم مقيم
وإما عذاب أليم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(لعلمكم بقاء ربكم توقنوا) أى رجاء أن تتحققوا أن من قدر على رفع
السموات بغير عمد ودبر الأمر بحكام ونظام - قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى
من القبور لفصل القضاء ثم ثواب كل عامل على ما عمل ، إن خيرا نخير وإن شرا
فشر ؛ فلما سعادة لاشقاء بعدها ، وإما نكال وعذاب تتبدل من هوله الجلود
« كَلَمَّا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

وخلاصة هذه العبرة — إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة
من الشمس والقمر وسائر الكواكب فى الجوّ بلا عمد ودبر الأمور بغاية الإحكام
والدقة ولم يشغله شأن عن شأن — ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح إلى الأجساد
ويُعِيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء يفصل فيها القضاء ، وإذا أيقنتم
بذلك وليتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان ، وأخلصتم العبادة للواحد الديان ،
واثتمتم بوعده ووعيده وصدقتم برسله وبادرتم إلى اتباع أوامره وتركتم ما نهى عنه ،
فقرتم بسعادة الدارين .

وبعد أن ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته وكمال قدرته أردفها
بالأدلة الأرضية فقال :

(١) (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها ، وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائل ، ويسيرون فى أكنافها يبتغون رزق ربهم منها .

ولاشك أن الأرض لعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب .

(٢) (وجعل فيها رواسى) أى وأرساها بجبال راسيات شامخات لا تنقل ولا تتحرك حتى لا تتحيد وتضطرب .

(٣) (وأنهار) أى وجعل فيها أنهارا جارية لمنافع الإنسان والحيوان ، فيسقى الإنسان ما جعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ويجعلها له طعاما وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

(٤) (ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين) أى وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى حين تكوّنهما ، فقد أثبت العلم حديثا أن كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا فى زهرة واحدة كالتن ، وإما أن يكون كل منهما فى زهرة كالتفاح مثلا .

(٥) (ينشى الليل النهار) أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظاما بعد أن كان مضيئا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئا ، وكل هذا لئتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار أو بالبحث على المعاش والأرزاق كما قال : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التي تشاهد رأى العين في كل صباح ومساء وفي كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به وعقل يهتدى به إلى وجه الصواب وينتقل من النظر في الأسباب إلى مسبباتها فقال : (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء العظيمة - لدلائل وحجج لمن يتفكر فيها ويعتبر فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد وهو ذو الإرادة المصنعة والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه ولا إعادة من فنى منهم ولا ابتداع ما شاء ابتداعه ، ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغي أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبي أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

وقد روى « تفكروا في آلاء الله ولا تنفكروا في الله » .

(٦) (وفي الأرض قطع متجاورات) أى وفي الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بانتفاضل مع تجاورها ، فمن سبخة لا تنبت شيئاً إلى أرض جيدة التربة تجاورها وتنبت أفضل الثمرات وتختلف النبات ، ومن صالحة للزرع دون الشجر ، إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع ، إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك ، ومنها الرخوة التي لا تكاد تماسك وهي تجور الصلبة التي لا تنفتحها المعاول وأدوات التدمير من المفრعات (الديناميت والقنابل) وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره في خلقه .

(وجنات من أعناب) أى وفيها بساتين من أشجار الكرم .

(وزرع) أى وفيها زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التى تكون غذاء للإنسان والحيوان .

(ونخيل صنوان وغير صنوان) أى وفيها نخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، وغير صنوان أى متفرقات مختلفة الأصول .

(يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) أى يسقى كل ما ذكر من القطع والجنت والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه ، ومع وجود أسباب التشابه نفضل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرا ورائحة وطعما وحلاوة وحموضة .

ثم بين أن مثل هذا لا يفكر فيه إلا من أوتى العقل الذى يفكر فى المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فيما فصل من الأحوال الساقفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل ، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتلاصقة ، مع أنها تسقى بماء واحد وتشابه وسائل نموها - يحزم حتما بأن لذلك صناعا حكما قادرا مدبرا لا يعجزه شيء ، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك ، فهو قادر على إعادة مابدأه أول مرة ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

وَإِنْ تَعَجَّبْ فَتَعَجَّبْ قَوْلَهُمْ أَئِذَا كُنَّا بُرَاءًا بِأَنَّا لَبِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ،

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) .

شرح المفردات

العجب : تغير النفس حين رؤية ما يستبعد في مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غل ، وهو طوق من الحديد طرفاه في اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلثات (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) كسمرة : وهى العقوبة التى تترك في المعاقب أثرا قبيحا كصلم أذن أو جدد أنف أو سمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقاب عدا موسى حية وناقة صالح ، والإنذار : التخويف ، والهادى : القائد الذى يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم لوحدايته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى ، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسى فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعته لمن يتأمل ويتفكر فى ذلك الملكوت العظيم - ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياسا على ما يرون ويشاهدون ، فإن من قدر على خلق السموات والأرض وسائر العوالم على هذا النجوى الذى يحار الإنسان فى الوصول إلى معرفة كنهه لا يعجز عن إعادة فى خلق جديد كما قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْزِيَ الْمُوتَى ؟ .

الإيضاح

(وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا ترابا أننا لنى خلق جديد ؟) أى وإن تعجب من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم :

(أنذا كند ترابا أننا لنى خلق جديد ؟) أى أنذا فنيذا و بلينا نعاد بعد العدم ، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بداءة ذى بدء وتصويرهم فى الأرحام وتغيير شئونها حالا بعد حال .

وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعا فى تسع سور من القرآن : فى الرعد ، والإسراء ، والمؤمنون ، والنحل ، والعنكبوت ، والسجدة ، والصفات ، والواقعة ، والنازعات ؛ وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد .

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث فقال :

(أولئك الذين كفروا بربهم) أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم وكذبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى التى ترشدكم إلى الإيمان وتهذبهم سبيل الرشاد لو كانوا يبصرون — هم الذين تمادوا فى عنادهم وكفرهم ، فإن إنكار قدرته تعالى وإنكار له لأن الإله لا يكون عاجزا .

(وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدهم عن النظر فى الحق واتباع طريق الهدى والبعد عن الهوى كما قال :

كيف الرشاد وقد خلّفت فى نفر لهم عن الرشاد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى — إنهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال فى أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالغل ، ويؤيده قوله تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى وأولئك هم اللما كثون فى النار دار

الذل والهوان لا يتحولون عنها ولا يبرحونها كِفَاءً ما سولت لهم أنفسهم من سوء الأعمال وما اجترحوا من الموبقات والشُرور والآثام : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم في إنكار عذاب يوم القيامة ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذى أوعدهم به ، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له نجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه إنزاله . وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ويستعجلونك بالسيئة) أى ويستعجلونك بالعقوبة التى هددوا بها إذا هم أصروا على الكفر استهزاء وتكذيباً كما حكى الله عنهم فى قوله « وَذَقُوا اللَّهَ لَعْنَتُهُ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ » وفى قوله « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وفى قوله « سَأَلِ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » .

(قبل الحسنة) أى قبل الثواب والسلامة من العقوبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدم على الإيمان بالثواب فى الآخرة وحصول النصر والظفر فى الدنيا .

(وقد خلت من قبلهم المثلثات) أى ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكبرين وقوع ما تنذرهم به ، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين ، فمن أمة مسخت قرده ، وأخرى أهلكت بالرجفة ، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك .

(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى وإن ربك لذو غفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده فتارك فضيخته بها فى يوم القيامة ، ولولا حلمه وغفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال « وَلَوْ يُوَاسِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ » .

(وإن ربك لشديد العقاب) لمن يجترح السيئات وهو متماد فى غوايته سادر

في آثامه ، وقد يعجز له قسطا منه في الدنيا ويكون جزاء له على ما سولت له نفسه كما يشاهد لدى المدمنين على الخمر من اعتلال وضعف ومرض مزمن وفقر مدقع وذل وهوان بين الناس ، وفي المقامرين من خراب عاجل وإفلاس في المال والذل بعد العز ، ور بما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين فيستوفي قطه هناك نارا تكوى بها الجباه والجنوب ، وتبدل الجلود غير الجلود ، وقد قرن المغفرة بالعقاب في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ليعتدل الرجاء والخوف كقوله « إِنَّ رَبَّكَ لَمَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وقوله « نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الخوف والرجاء .

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدنا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد » .

وبعد أن ذكر طعنهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله بالحشر والمعاد ، ثم طعنهم فيه لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال ذكر أنهم طعنوا فيه لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا تعنتا وجحودا : هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح ، فيجعل لنا الصفا ذهباً ويزيح عنا الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ، وقد طلبوا ذلك ظناً منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لا يدخل في باب المعجزات التي أتى بها الرسل السالكون .

وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله في آية أخرى « وَمَا مَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى إن سئنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوها أهلكناهم بذنوبهم ، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم راغباً في إجابة مقترحاتهم حباً في إيمانهم بين له وظيفته التي أرسل لأجلها فقال :

(إنما أنت منذر) أى إن مهمتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل ، وليس عليك الإتيان بالآيات التي يقترحونها ابتغاء هدايتهم ، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَمَّا لَكَ تَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(ولكل قوم هاد) أى ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبيل الخير ، فطره الله على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله ، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى ، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده ، فإن لم يكونوا فالحكام والمجاهدون الذين يسرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشرائع ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ،
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) .

شرح المفردات

الغيض : النقصان يقال غاض الماء وغضته كما قال « وَغِيضَ الْمَاءُ » بمقدار ، أى بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ، والغائب : ما غاب عن الحس ، والشاهد : الحاضر المشاهد ، الكبير : العظيم الشأن ، والمتعالى : المستعلى على كل شيء ، وأسر الشيء : أخفاه فى نفسه ، والمستخفى : المبالغ فى الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من قولهم سرب : إذا ذهب فى سرّبه (طريقه) معقبات ، أى ملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عقبه : أى جاء عقبه ، من بين يديه ، أى قدامه ، ومن خلفه ، أى من ورائه ، من أمر الله ، أى بأمره وإعانتة ، وال ، أى ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم بقوله « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » ، إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين تفترق وتفترقها يختلط بعضها ببعض ، وقد تتناثر فى بقاع شتى ونواح عدة وربما أكل بعض الجسم سبع وبعضه الآخر حداة أو نسر ، وحينئذ يأكل السمك قطعة منه وأخرى يجرى بها الماء وتدفن فى بلد آخر ، أزال هذا الاستبعاد بأن الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، والذى يعلم الأجنة فى بطون أمهاتها ، ويعلم ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواقعها مهما نأى بعضها عن بعض ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى .

الإيضاح

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد . طویل العمر أو قصيره كما قال « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » ، وقال « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

(وما تغيض الأرحام وما تزداد) أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد فقد يكون واحداً وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاماً وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريباً ، فقد دل الإحصاء والبحث الذى عمل فى مستشفيات لندن على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٥ يوم ، وفى مستشفيات برلين على أنه لا يستقر أكثر من ٣٠٨ ومن ثم جرت الحاكم الشرعية الآن على أن عدة المطلقة لا تكون أكثر من سنة بيضاء أى سنة قمرية أى ٣٥٤ يوماً ، وهو رأى فى مذهب مالك .

(وكل شيء عنده بمقدار) أى ولكل شيء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقص « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . وفى معنى الآية قوله تعالى « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَالِقُنَا بِقَدَرٍ » وفى الحديث « إن إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم بعثت إليه رسولا : أن ابنا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول « إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » .

(عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها ، فقد أثبت العلم حديثاً أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة بل ترى بالمنظار المعظم (التليسكوب) ومنها الجراثيم (الميكروبات) التى تولد كثيراً من الأمراض التى قد يعسر شفاؤها أو يتعذر فى كثير من الأحوال كجراثيم السرطان والسل والزهرى ، أو تشفى بعد حين كجراثيم الجدري (الدفترى) والحصبة ونحوها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » ، وما تشاهدونه وتروونه بأعينكم « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الكبير المتعال) أى هو العظيم الشأن الذى يجعل عما وصفه به الخلق من صفات المخلوقين ، المستعلى على كل شئ ، بقدرته وجبروته وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه ، والآيات التى اقترحوها ، والعذاب الذى استعجلوه ، وإنما يؤخر ذلك لمصلحة لا يدركها البشر فيخفى عليه سرها .

وفى معنى الآية قوله « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » .
ثم بين أن علمه تعالى شامل لجميع الأشياء فقال .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ به ، أو جهر به وأظهره فهو سواء عند الله يسمعه ولا يخفى عليه شئ منه كما قال « وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » وقال « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

(ومن هو مستخف بالليل) أى يختف فى عقر داره فى ظلام الليل .

(وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار ، فكلاهما عند الله سواء ، وروى عن ابن عباس فى تفسير ذلك : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برئ من الإثم .

(له محقيات من بين يديه ومن خلفه) أى للانسان ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال

يكتب السيئات ، وملكاً آخران يحفظانه ويحرسانه . واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكتابتان كما جاء في الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

وإذا علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان حذراً من وقوعه في المعاصي خيفة أن يطعم عليه الكرام الكاتبون ويزجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحى منه من البشر ، وهو أيضاً إذا علم أن كل عمل له في كتاب مدخر يكون ذلك رادعاً له داعياً إلى تركه .

وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل بعد أن أثبتته الدين و بعد أن كشف العلم أن كثيراً من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بآلات دقيقة لاتدع منها شيئاً إلا تحصىه ، فقد أصبحت المياه والكهرباء في المدن تعد بالآلات (العدادات) فالمياه التي يشربونها والكهرباء التي يضيئون بها منازلهم تحصى وتعد كما يعد الدرهم والدينار ، وكذلك هناك آلات تحصى المسافات التي تقطعها السيارات في سيرها ، وأخرى تحصى تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصىها .

وكما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائباً عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لا يقرّون إلا بما يرونه رأي العين ولا يذعنون إلا بما يقع تحت حسهم ، وبهذا يصدق قول القائل (الدين والعقل في الإسلام صنوان لا يفترقان ، وصديقان لا يختلفان) .

(يحفظونه من أمر الله) أي هم يحفظونه بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته ، فكما جعل سبحانه للمحسوسات أسباباً محسوسة ربط بها مسبباتها على حسب ما اقتضته حكمته ، فجعل الجفن سبباً لحفظ العين مما لم يرد أن يكون ، كذلك

جعل لغير المحسوسات أسبابا ، فجعل الملائكة أسبابا للحفظ ، وأفعاله تعالى لا تخلو من الحكم والمصالح .

وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراما كاتبين وإن كنا لاندري ماقلههم وما مدادهم وكيف كتابتهم وأين محلهم وما حكمة ذلك ، مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كاف في الثواب والعقاب عنهما ، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة السكرام كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب .

ولمفسرى السلف أقوال في الآية . قال ابن عباس : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وذلك الحفظ من أمر الله وبذن الله ، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحدا من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه ، فإذا جاء قدر الله خاوا عنه . وقال علي : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يفرق أو يحرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر اه .

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيئها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض ، وارتكابهم للشرور والموبقات التى تقوض نعمه المجتمع وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم بالأفراد .

روى أن أبا بكر قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » ويرشد إلى صحة هذا قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وقد بسطنا هذا فيما سلف في مواضع متعددة وأشار إليه المحقق المؤرخ ابن خلدون في مقدمة التاريخ وعقد له بابا جعل عنوانه (فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران) واسترسل فيه على النهج المعروف عنه وضرب له الأمثلة بما حدث في كثير من الأمم قبل الإسلام

وبعد ، وبين أن الظلم قد نل عروشها وأذل أهلها وجعلها طُعْمَةً لِلْكَالِفِينَ وَمِثْلًا
لِلْآخِرِينَ .

وفي حال الأمم الإسلامية اليوم وقد اجتثت من أطرافها وتحكم فيها أهل الغرب
وأذلوا بعد أن استعمروها عبرة لمن تدبر وألقى السمع وهو شهيد ، والقرآن شاهد
على صدق هذه النظرية ، كما قال : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »
وقوله « إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى الصالحون لاستعمارها والانتفاع
بخيراتها ما ظهر منها وما بطن .

(وإذا أراد الله بقوم سراً فلا مرد له) أى وإذا أراد الله بقوم سوءاً من مرض
وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا فى الأسباب التى تصل
بهم إلى هذه الغاية ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يرد ما قدره لهم .
وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة ، وطلب
العقاب قبل الثواب فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له .
والخلاصة — إنه ليس من الحكمة فى شيء أن يستعجلوا ذلك .

(وما لهم من دونه من وال) أى وما لهم من دون الله سبحانه من يلى أمورهم
فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضرر ، فالآلهة التى اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئاً
من ذلك ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلاً عن دفعه عن غيرها .
ولله در الأعرابى الذى رأى صنماً يبول عليه الثعلب فثارت به حميته فأمسكه
وكسره إرباً إرباً وقال :

أرباً يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعلاب
وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا
ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَايِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ (١٣) لَهُ
دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ
كَفِّيه إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) .

شرح المفردات -

البرق : ما يرى من النور لامعا خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع
خلال السحاب . وسببهما على ما بين في العلوم الطبيعية - أن البرق يحدث من تقارب
سحابتين مختلفتي الكهر بائية ، حتى يصير ميل إحداها للاقتراب من الأخرى أشد
من قوة الهواء على فصلها ، فتبهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى
شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذي نشأ من تصادم دقائق
الهواء الذي تطرده كهر بائية البرق أمامها ، والصواعق : واحدها صاعقة . وسببها أن
السحب قد تمتلئ بكهر بائية والأرض بكهر بائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا
قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهر بائية منها فتنزّل صاعقة تهلك
الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل
إذا أحكمت فتله كأن المجادلين يفتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والحال : أى الماحلة
والمكيدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا
تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال : أى ضياع وخسار ، والظلال : واحدها ظل
وهو الخيال الذى يظهر للجرم ، والغدو : واحدها غداة كقنّى وقناة وهى أول النهار ،
والآصال ، واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

المعنى الجملى

بعد أن خوَّف سبحانه عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا يدفعه أحد - أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حيناً وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .

روى « أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لييد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما ذلك ، فقال له عامر لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلاً جُرُداً ورجالا مُرُداً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنى الله عليك ذلك وابنا قَيْلَةَ (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما هما بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه ، فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة وانطلقا في أحياء العرب يجتمعان لحربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غُدة كغدة البكر ، فأوى إلى بيت سلوئية وجعل يقول : (غُدة كغدة البكر وموت في بيت سلولية ، حتى مات) وأنزل الله في مثل ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله » .

الإيضاح

(هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً) أى إنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده كالسافر ومن فى جَرِينِهِ التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعه ، وهكذا حال كل شىء فى الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه فى أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره على حسب مكانه أو زمانه .

(وينشئ السحاب الثقال) أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممثلة ماء فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

(ويسبح الرعد بحمده) أى إن فى صوت الرعد دلالة على خضوعه وتزنيه

عن الشريك والعجز كما يدل صوت المسيح وتحميده على انتياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير، ونحو الآية قوله سبحانه : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْلِيحَهُمْ » .

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يُعرف ذلك في وجهه ، ثم يقول للزعد : سبحان من سبّحت له ، وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا » .

(والملائكة من خيفته) أى ويسبح الملائكة الكرام من هيئته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاجبة والولد .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) إصابته بها فيهلكه .

(وهم يجادلون في الله) أى يجادلون في شأنه تعالى وفيما وصفه به الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب .

وفي هذا تسليية لرسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذي جاء به عليه السلام آية - سلاه بما ذكر كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة بل تخطوه إلى الألوهية ، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون في الله باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له ، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض والحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكيدة والعناد ، فهوّن عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

(وهو شديد الحال) أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والسيكيد لأعدائه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون ، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه ولا قوة على رده ، لكنه يمهدهم لأجل معوم على حسب ما تقتضيه الحكمة كما صح في الحديث : « إن ربك لا يهمل ولكن يهمل » ومثل الآية قوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وقوله : « وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قال ابن جرير في تفسير ذلك : والله شديدة مما حلتها في عقوبة من طغى عليه وعصى وتمادى في كفره .

(له دعوة الحق) أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغي أن يكون ، والنجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم . وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد: أى لله من خلقه أن يحدوه ويخلصوا له ، وإنه شرعها وأمر بها .

(والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله) أى والأصنام الذين يدعوه المشركون ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشيء مما يريدونه من نفع أو ضرر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه . والماء جهاد لا شعور له يسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لا تحير جوابا .

وخلاصة ذلك — إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم ، وهم لا يشعرون بشيء فضلا عن أن يجيبوا أحدا — بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه هلم أقبل إلى وهو لا يستطيع ردا ولا جوابا .

(وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أى فى ضياع وخسار ، فإن دَعَوْا الله لم يجبههم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .
ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال :

(والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى وينقاد لعظمته كل شىء ، فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار كرها فى حال الشدة كما جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ » وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُتَيْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقوله « لَنَنْجِيَنَّكَ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

(وظلالهم بالغدو والآصال) أى وتسجد أيضا ظلال كل من كفر بالله طوعا أو كرها بالغدوات والعشايا تبعاً لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، فيصرفها الله تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيرا فى استعمالاتهم .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السموات والأرض خاضع لقدرته متقاد لإرادته بالغدو والآصال ، وفى كل وقت وحين ، طوعا أو كرها على حسب ما يريد

أعاد الكلام مع المشركين ليلزمهم الحجة ويقنعهم بالدليل ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته وشمول قدرته وإرادته وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره .

الايضاح

(قل من رب السموات والأرض) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء : من رب هذه الأجرام العالوية والسفلية التى تبهر العقول بحميل صنعها وكامل ترتيبها ووضعها ؟

(قل الله) أى قل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع وأحكم بناء هو الله ، وقد أمر عليه السلام ليجيب بذلك للإشارة إلى أنه هو وهم سواء فى ذلك الجواب الذى لا محيص منه وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟) أى قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جادات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟ وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد يزن أعماله بميزان الحكمة والمصلحة .

وخلاصة ذلك — أقبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية فى العجز ؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا فى الاعتراف بالوحدانية وهو عامكم بذلك — سببا فى إشراككم به سواء من أضعف خلقه ، وهو بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » ثم ضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه ، فقال :

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهم مصورا سخيف آرائهم مفتداً قبيح معتقداتهم : هل يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ولا يهتدى لحجة يسلكها إلا بأن يهتدى بدليل ، والبصير الذى يهتدى الأعمى لسلك الطريق ؟ لاشك أن الجواب أنهما غير متساويين ، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه ، لا يستوى وإياكم ؟ وأنتم لا تعرفون حقاً ولا تبصرون رشداً .
ثم ضرب مثلاً للكفر والإيمان بقوله :

(أم هل تستوى الظلمات والنور) أى هل تستوى الظلمات التى لا ترى فيها الطريق فتلسك ، والنور الذى يبصر به الأشياء ، ويجلو ضوءه الظلام - لاشك أن الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان ، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حيرة ، يضرب أبداً فى غمرة ، لا يهتدى إلى حقيقة ولا يصل إلى صواب ، والإيمان بالله صاحبه منه فى ضياء ، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يشبه على إحسانه ويعاقبه على إساءته ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ويكلؤه بعنايته فى كل وقت وحين ، فهو يفوض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب ، وتعقدت فى نظره مداهيات الحوادث .

(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أخلق أو أنكم التى اتخذتموها معبودات من دون الله ، خلقاً كخلقه ، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله ، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك - أم إنما بكم الجهل والبعد عن الصواب ، إذ لا يخفى على من له مُسَكَّة من العقل أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من الجهل بحقيقة المعبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبارات إليه ، وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره ، وهو الذى يرزقه ويتونه آناء الليل وأطراف النهار .

ثم ذكر فذلركة لما تقدم ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت لها فقال :

(قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار) أى قل مبينا لهم وجه الحق :

الله خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء ، وهو الفرد الذى لا ثانى له ، الغالب على كل شيء سواه ، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَنَنْتَعِلُكُمْ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) .

شرح المفردات

الأودية : واحدها وادٍ ، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء ، والفرجة بين الجبلين ، وقد يراد به الماء الجارى فيه ، بقدرها : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة على حسب تفاوت أمكنتها صفرا وكبرا ، واحتمل : أى حمل ، والزبد : ما يعو وجه الماء حين الزيادة كالخيب ، وما يعلو القدر عند غيائها ، والرابي : العالى المرتفع فوق الماء الطافى عليه ، والجفاء : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر - ضرب مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه

ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء وما أعد لكل منهما يوم القيامة ، وبين أن حالهما لا يستويان عنده ، وأن الذى يعمى تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب .

الإيضاح

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى أنزل من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها فى الصغر والكبر ، فحمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا عاليا مرتفعا فوقه طافيا عليه - وهذا هو المثل الأول الذى ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر .

(وما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) أى ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أوفضة وكذلك من سائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص - زبد راب كما يطفو على الماء فى الأودية زبد مثله ، ويتخذ من الذهب والفضة حلى ، ومن الحديد والرصاص والنحاس وما أشبه ذلك متاع وهو ما يتمتع به الناس كالأواني والقدر وغيرها من آلات الحرث والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ، وهذا هو المثل الثانى .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لا يثبت له ولا دوام أمام الحق ، وقد فصل هذا بقوله .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) أى فأما الزبد الذى يعلو السيل فيذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث فى الأرض ، فالماء نشربه ونسقى به الأرض

فإنبت جيد الزرع الذى ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها فى الحلى وصك النقود ، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها فى متاعنا من الحرث والحصد وفى المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

وخلاصة المثالين — إنه تعالى مثل نزول الحق وهو القرآن الكريم من حضرة القدس على القلوب الخالية منه المتفاوتة الاستعداد فى ملاحظته وحفظه ، وفى استذكاره وتلاوته ، وهو وسيلة الحياة الروحية والفضائل النفسية والآداب المرضية — بماء نزل من السماء فى أودية قاحلة لم يكن لها سابق عهد به ، وسال بمقدار اقتضت الحكمة أن يكون نافعا فى إحياء الأرض وما عليها جالبا إسماعدة الإنسان والحيوان ، وكذلك جعله حلية تتحلّى بها النفوس وتصل بها إلى السعادة الأبدية ، ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد ومثله بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها ردحا طويلا من الزمن .

ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لفقد استعدادهم لعمل الخير بما ران على قلوبهم من شرور المعاصى واجترأ الآثام — بالزبد الزابى الذى يطفو على الماء ، أو يخرج من خبث الحديد والنحاس والفضة والذهب ونحوها ويضمحل سريعا وينزل .

وقال الزجاج : مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شئ ، ومثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، ومثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به .

(كذلك يضرب الله الأمثال) أى ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التى توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر الثوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر — نضرب لهم الأمثال فى كل باب حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلوكوها وطرق الباطل فينحرفوا عنها وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد ويكونوا المثل

العليا بين الناس : « كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ - فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به ونفع به الناس فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

وروى أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفأش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها - فذلك مثلى ومثلكم أما أخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها » .

و بعد أن بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل في الحال والمآل وأتم البيان شرع يبين حال أهلها ما لا ترغيبا فيهما وترهيبا وتكلمة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير ، وتنفيرا عن سلوك طرق الباطل والشر فقال :

(للذين استجابوا لربهم الحسنى) أى للذين أطاعوا الله ورسوله واتباعوا أوامره وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عند ربه - المثوبة الحسنى الخالصة من السكدر والنصب ، الدائمة المقتربة بالتعظيم والإجلال ، والآية بمعنى قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقوله : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

(والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ،

أولئك لهم سوء الحساب، وما أواهم جهنم وبئس المهاد) أى والذين لم يطيعوا الله ولم يمتثلوا لأوامره ولم ينتهوا عما نهوا عنه ، فقد جعل الله لهم ثلاثة أنواع من العذاب والعقوبة .
(١) إنهم من شدة ما يرون من العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا ما فى الأرض جميعا ومثله معه فدية لأنفسهم لفعلوا ، فإن الحبوب أولا لكل إنسان هو ذاته ، وما سواها فيحب لكونه وسيلة إلى مصالحها ، فإذا كان مالكا لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه .

وفى هذا من التهور الشديد ومن سوء ما يلقاهم فى ذلك اليوم ، ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر .

(٢) سوء الحساب ، فيناقشون على الجليل والخفير ، وفى الحديث « من نوقش الحساب عذب » ذاك أن كفرهم أحبط أعمالهم ، وارتكابهم للشروع والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرى الغواية والضلالة ، وجهم للدنيا جعلهم يعرضون عما يقربهم إلى الله زلفى فباءوا بالخسران والهوان والنكال .

(٣) إن ما أواهم جهنم وبئس المسكن مسكنهم يوم القيامة ، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم وينيلهم القرب من كرامته ، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا فى لذاتهم فحقت عليهم كلمة ربك .

ونزل فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى :

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى لا يستوى من يعلم أن الذى أنزله الله عليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا امتراء . ومن لا يعلم فهو أعمى لا يهتدى إلى خير يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه ، فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلالة .

قال قتادة : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله اه .

(إنما يتذكر أولوا الألباب) أى إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ويصل إلى
لُبِّها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) .

شرح المفردات

يدرءون : أى يدفعون ، والعدن : الإقامة، يقال عدن بمكان كذا: إذا استقر ،
ومنه المعدن لمستقر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد ، ولمن ركب
رأسه وسار فى سبيل الضلالة لا يلوى على شئ ولا يقف لدى غاية - بين أن من جمع
صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق وملكوا نواحي الإيمان وأقاموا دعائمه ،
وهؤلاء قد كتب الله لهم حسن العقبى والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الذين يوفون بعهد الله) أى الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين العباد ، وشهدت فطرم فى هذه الحياة بصحته ، وأنزل عليهم فى الكتاب إيجابه .

فال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهود والميثاق فى بضع وعشرين موضعاً من القرآن عناية بأمره واهتماماً بشأنه .

(ولا ينقصون الميثاق) أى الميثاق الذى وثقوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به ، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات ، والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل ، وفى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب » .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى يصلون الرحم التى أمرهم الله بوصولها فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحاويج وذوى الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » وإنساء الأجل : تأخيره ، وذلك بالبركة له فيه فكأنه قد زاد . ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله وحقوق عباده : كالإيمان بالكتب والرسل ، ورصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان : كالإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ، إلى غير ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن البر والصلة ليخفان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا : والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته في قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابة وإجلال .
(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) أى يحذرون مناقشة الله إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم لرهبتهم جادون في طاعته ، محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه .

(وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِمْ) الصبر : حبس النفس عن نيل ما تحب ، أى والذين صبروا على ما تكرهه النفس ويثقل عليها من فعل الطاعات وترك الشهوات طلباً لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا .

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أى أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله ، مع تمام أركانها وهيئاتها احتساباً لوجهه .

(وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم سرا فيما بينهم وبين ربهم ، وعلانية بحيث يراهم الناس ، سواء كان الإنفاق واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أم مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمحويج من الأجانب .

(وَيُدْرِعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) أى ويدفعون الشر بالخير ويجازون الإساءة بالإحسان ، فهو كقوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ومن ثم قال ابن عباس : أى يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم .

(أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ) أى أولئك الذين وصفناهم بتلك الحاسن والسيئات التى بلغت الغاية فى الشرف والكمال - هم الذين لهم العقبى الحسنة فى الدار الآخرة .
ثم بين هذه العقبى فقال :

(جنات عدن يدخلونها) أى تلك العقبى هى جنات إقامة يخلدون فيها لا يخرجون منها أبدا .

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين فقال :
(ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ويجمع فيها بينهم وبين أحبائهم من الآباء والأزواج والأبناء من عمل صالحا لتقربهم أعينهم ويزدادوا سرورا برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم فى الدنيا فيشكرون الله على الخلاص منها .

وفى الآية إيحاء إلى أنه فى ذلك اليوم لا تجدى الأنساب إذا لم يسعفها العمل الصالح ، فالآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بعملهم ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَبْـٍ سَلِيمٍ »
وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مرض موته قال لفاطمة : « يا فاطمة بنت محمد سلبنى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

ثم ذكر ما لهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم فقال :
(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

(سلام عليكم بما صبرتم) أى قائلين لهم : أمان عليكم من المكارِه والخواف التى تحيق بغيركم ، بما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والآلام التى لا يقيموها فى دار الحياة الدنيا .

(فنعم عقبى الدار) أى فنعم عاقبة الدنيا الجنة .

أخرج ابن جرير « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم » .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أوصاف الملتزمين وما أعد لهم عنده في دار الكرامة بما كان لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق - بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة في مثل هذا « نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

الإيضاح

وصف سبحانه الأشقياء بصفات هي السبب في خسرتهم :

(١) (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أى ينقضون عهد الله الذى أقره عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان بالأنبياء والوحي ونحوها ، ونقضه إما بالإنكار فلا يمكنهم العمل بموجبه ، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعد يماندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته ، وقوله : من بعد ميثاقه أى من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته .

(٢) (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاءوا بالحق ، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وقطعوا الرحم وكانوا حرباً على المؤمنين وعونا للكافرين ، ومنعوا المساعدات العامة التى توجب التآلف والمودة بين المؤمنين كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وجاء أيضاً « المؤمنون كالبند الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقى الأعضاء بالسهر والحمى » .

(٣) (ويفسدون فى الأرض) بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بابتزاز أموالهم واغتصابها بلا حق ، وتهيج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم ، وإظهار العدوان لهم .

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم فقال :

(أولئك لهم العنة) أى أولئك الذين اتصفوا بهذه الخمازى وسىء الصفات ، لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة ربهم ورضوانه ، والبعد من خيرى الدنيا والآخرة . (ولهم سوء الدار) أى ولهم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم جزاء وفاقلما اجتروحه من السيئات وأتوه من الشرور والآثام .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) .

شرح المفردات

يقدر : يضيّق كقوله « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيّق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شىء ، متاع : أى متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء ، وأناب : أى رجع عن العناد وأقبل على الحق ، وتطمئن : أى تسكن وتخشع ، وطوبى لهم : أى لهم العيش الطيب وقرّة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من تقضى عهد الله من بعد ميثاقه ولم يقرّ بوحدانيته وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو ملعون فى الدنيا ومعذب فى الآخرة - بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده ، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر ، فربما وسع على الكافر استدراجا له ، وضيق على المؤمن زيادة فى أجره ، ثم ذكر مقالة لهم كثير فى القرآن ترددها وهى طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على ذلك ، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

الإيضاح

(الله يبسط الرزق لمن يشاء) أى الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق فى جمع المال وله من الحيلة فى الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما يخفى على غيره ، ولا علاقة لهذا بإيمان وكفر ولا صلاح ومعصية .
(و يقدر) على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة فى كسبه ، وليس بالحول القلب فى استنباط أسبابه ووسائله ، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البرّ والفاجر كما يمر عليهما الليل والنهار والصبح والمساء .

ثم ذكر أن مشركى مكة بطروا بغنائهم فقال :

(وفرحوا بالحياة الدنيا) أى وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق يبسط الرزق فى الحياة الدنيا وعدّوه أكبر متاع لهم وأعظم حظوة عند الناس .
ثم بين لهم خطأهم فقال :

(وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) أى وما نعيم الدنيا إذا قيس على نعيم الآخرة إلا نزر يسير سريع الزوال فهو كهجالة الراكب وزاد الراعى ، فلا حق

لهم في البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها وانتفعوا به من خيراتها ، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال .

أخرج الترمذى عن المستورد قل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحكم يصبعه هذه في اليم فلينظرهم يرجع ، وأشار بالسبابة » . وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود قال : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك ، فقال مالى وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ولما أبان أنهم قد اتخذوا بالسراب ، واكتفوا بالخباب ، ذكر ما ترتب على ذلك الفرور من اقتراحهم على رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا من أهل مكة كعبد الله بن أبى وأحبابه ، هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين كسقوط السماء عليهم كسفا ، أو تحويل الصفا ذهبا ، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجاً وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التى حكها القرآن عنهم كقولهم : « فَنُنَزِّلُ بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » وسأنتهم لقرط عنادهم وعظيم مكابراتهم قد ادعوا أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التى توجب الإذعان والإيمان أو التى لا تقبل شكاً ولا جدلاً .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لادخل له في هداية ولا ضلال بل الأمر كله بيده .

(قل إن الله يضل من يشاء ويهذى إليه من أناب) أى إنه لا فائدة لسكم في نزول الآيات إن لم يرد الله هدايتكم فلا تشغلوا أنفسكم بها ، ولكن تضرعوا إليه واطلبوا منه الهداية ، فإن الضلال والهداية بيده وإليه مقاليدها ، وادعوه أن يهتدوا

لكم من أمره رشداً ، وأن يهدى لكم وسائل النجاة والسعادة ، ويدفع عنكم نزغات الشيطان ووساوسه لتظفروا بالحسنى في الدارين .

والخلاصة — إن في القرآن وحده غنى عن كل آية ، فلو أراد الله هدايتكم بصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها وكان لكم فيه مرشد أيما مرشد ، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لاتلون على شيء ، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصيح ، لسوء استعدادكم وكثرة لجأكم وعنادكم ، ومن كانت هذه حاله فأتى له أن يهتدى ولوجاءته كل آية ؟ كما قال : « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

أما من أقبلوا إلى الله وتأملوا في دلائله الواضحة ، وسكوا طرقه المعبدة ، فأنه ينير بصائرهم ويشرح صدورهم ، وهم لا بد واصلون إلى الفوز بالحسنى ، وحاصلون على السعادة في الدنيا والآخرة ، وهم من أشار إليهم بقوله :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى هم الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت حين ذكره ، وإذا عرض لهم الشك في وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته في آيات وعجائب الكائنات ، فرضى به مولى ورضى به نصير ، ومن ثم قال :

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ويزول القلق والاضطراب من خشيته ، بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذى يذهب الهم والحشة ، وهى بمعنى قوله في الآية الأخرى : « ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » .

فالمؤمنون إذا ذكروا عقاب الله ولم يأمِنُوا من وقوعهم في المعاصي وجلت قلوبهم
كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا ذكروا
وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنّت إلى ذلك الوعد وزال منها
القلق والوحشة .

وفي الآية إيماء إلى أن الكفار أفندتهم هواء إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره ،
بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها .

ثم بين سبحانه جزاء المطمئنين وثوابهم فقال :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا بِهِ) أى إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات لهم القربى وقرة العين عند ربهم وحسن المآب والمرجع .
وفي هذا من الترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه
مالاخفاء فيه .

وخلاصة ذلك — إن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء في الحديث :
« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتَّأَوُ عَالِيَهُمُ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ
قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَتَأَسَّ
الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى
كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤).

شرح المفردات

خات: مضت ، متاب: مرجعي ، قطعت : شققت ، يئأس : يعلم وهو لغة هوازن ،
قارعة رزية تفرع القلوب ، أملت : أى أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة ، قائم :
رقيب ومتولى الأمور ، تنبئونه : تخبرونه ، بظاهر من القول : أى بباطل منه لاحقيقة
له فى الواقع ، والسبيل : هو سبيل الحق وطريقه ، والواقى : الحافظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه طيهم من رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات كما أنزل على
الرسال السالقين كموسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين ، وبين أن الهدى هدى
الله ، فلو أوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم فلا يجدهم ذلك فتتلا ولا قطعيرا ،
ذكر هنا أن محمدا ليس ببدع من الرسل وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون وطلبوا
الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا ولم تغنهم الآيات والنذر فكانت عاقبتهم
البوار والنكال ، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعا وأصبحوا معه
كأمس الدابر ؛ ولو أن كتابا تسير به الجبال عن أما كتبها أو تشق به الأرض فتجعل
أنهارا وعيونا لكان هذا القرآن الذى أنزلناه عليه ، ثم أبان أن الله تعالى قادر
على الإتيان بما اقترحوه لكنه لم يرد ذلك لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم .

ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه وبالتهديد بقارعة تحمل بهم ، وبتسليية النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا كما تزعم فباعد جبلَكُمَا مكة أخشيها (اسمى الجبلين) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء فى ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سَيَّرَ بالقرآن الجبال ، قَطَّعَ بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا ، فنزلت .

الإيضاح

(كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أُمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) أى كما أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلا فكذبوهم ، كذلك أرسلناك فى هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم .

وخلاصة ذلك — إننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك وأعطيناهم كتبنا تتلى عليهم ، كذلك أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم ، فلماذا يقترحون غيره ؟ .

(وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ، ووسعت كل شئ رحمة ، ولم يشكروا نعم فضله عليهم ولا سبوا إحسانه إليهم بإرسالك وإنزال القرآن عليك وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وكفروا به أنهم جحدوه بتاتا أو أثبتوا له الشركاء .

(قل هو ربى لا إله إلا هو) أى قل لهم : إن الرحمن الذى كفرتم به هو خالقى ومتولى أمرى ومبلغى مراتب الكمال . لا رب غيره ولا معبود سواه ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وعن قتادة قال : « ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، قال لا ، اكتبوا كما يريدون » اهـ .
(عليه توكلت) أى عليه لا على غيره توكلت فى جميع أمورى ولا سيما فى نصرتى عليكم .

(وإليه متاب) أى وإليه وحده توبتى ، وهو بمعنى قوله : « وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » وفى هذا بيان لفضل التوبة ومقدار عظمتها عند الله ، وبعث للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطف سبيل ، إذ أمر بها عليه السلام وهو منزله عن اقتراف الذنوب فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى أحق وأجدر .
(ولو أن قرأنا سيرت به الجبال) أى ولو ثبت أن كتابا سیرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أما كتبها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام .
(أو قطعت به الأرض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيوننا كما حدث للحجر حين ضربه موسى بعصاه .

(أو كلم به الموتى) أى أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم بأن أحياهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام - لو ثبت هذا الشيء من الكتب لثبت لهذا الكتاب الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله فى الأنفس والآفاق ، واشتمل عليه من الحكم والأحكام التى فيها صلاح البشر وسعادتهم فى الدار الفانية والدار الباقية ، ومن قوانین العمران التى تكون خيرا لمتبعيها وفوزا لساكنيها ، وتجعل منهم خير أمة

أخرجت للناس ، وهذا بمعنى قوله : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

وخلاصة ذلك — لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة ، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذى لم يعدوه آية واقترحوا غيره .

ولا يخفى ما فى هذا من تعظيم شأنه الكريم ، ووصفهم بسخف العقل وسوء التدبير والرأى ، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، لأنها صادرة عن التشهى والهوى والتماذى فى الضلال والمكابرة والعناد ، لاعتن تقدير للأمر على وجهها الصحيح وتأمل فى حقائقها وما يجب أن يكون لها من الاعتبار .

ويجوز أن يكون المعنى — لو أن كتابا فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

(بل لله الأمر جميعا) أى بل مرجع الأمور كلها بيد الله ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن يهد فماله من مضل .

وخلاصة ذلك — إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه أن قلوبهم لا تلتين ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم .

(أفم يبيأس الذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعا) أى ألم يعلم الذين آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم ، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع فى العقول من هذا القرآن الذى لو أنزل على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله ، لكنه لم يشأ ذلك .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن

أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » يريد أن كل نبي انقرضت معجزته بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على وجه الدهر لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) أى ولا يزال الكافرون تصيبهم البلايا والرزايا من القتل والأسر والسلب والنهب بسبب تماديهم فى الكفر وتكذيبهم لك وإخراجك من بين أظهرهم .

(أو تحل قريبا من دارهم) أى أو تحل تلك القارعة قريبا من دارهم فيفزعون منها ويتطايروا شررها إليهم .

(حتى يأتى وعد الله) أى حتى ينجز الله وعده الذى وعده فىهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف .

(إن الله لا يخلف الميعاد) أى إن الله منجز ما وعده من النصر عليهم ، لأنه لا يخلف وعده كما قال : « فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفٍ وَعْدِهِ رُسُلُهُ » ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

ولما كان الكفار يسألون النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تسليمة له على سفاهة قومه قوله :

(ولقد استهزى برسلك من قبلك) أى إن يستهزى بك هؤلاء المشركون من قومك و يطلبوا منك الآيات تكذيبا لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلكم .

ثم بين شأنه مع المكذبين فقال :

(فأملت للذين كفروا) أى فتركهم ملاوة أى مدة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى .

(ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى ثم أحلت بهم عذابي ونقمتى حين تبادوا في غيرهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم - ألم أذقهم أليم العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ .

وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه ، فدخل في دين الله من دخل ومن أبى قتل ، ودانت العرب كلها له وانضوت تحت لوائه وحقت عليهم كلمة ربك . وفي هذا تعجب مما حل بهم ودلالة على شدته وفضاعة أمره كما لا يخفى .

ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الخجاج عليهم وما فيه توبيخ لهم وتعجب من عقولهم ، وكيف إنها وصلت إلى حد لا ينبغي لعاقل أن يقبله ولا يرضى به فقال : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفمن هو قائم بحفظ أرزاق الخلق ومتولى أمورهم وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر ولا يعزب عنه شيء - كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تسمع ولا تبصر ولا تدفع عن نفسها ولا عن يعبدها ضرا ولا تجلب لهم نفعاً .

وخلاصة ذلك - إنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها ، وإنما العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازى لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها - بقوارع تترى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأى العين - كمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن اتخاذ ربا يرجى نفعه أو يخشى ضرره .

ونحو الآية قوله : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرِيهَا » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » . وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(وجعلوا لله شركاء) عبدوها معه من أصنام وأوثان وأنداد

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ فقال :

(قل سموهم) أى صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ، وقد يكون المعنى سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، فإنما يسمى من ينفع ويضر .

(أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) أى بل أنخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لايعلمهم ، أو تنخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لايعلمها ، وفى هذا نفي لوجودها لأنها لو كانت موجودة لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

(أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم شركاء ظنا منكم أنها تنفع وتضر ، كما تسمونهم آلهة كما قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَمُّ وَابَأُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » .

وخلاصة حجاجه على المشركين — نفي الدليل العقلى والدليل الثقلى على أحقية عبادتها — فبعد أن هدم قاعدة الإشراف بقوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) زاد ذلك إيضاحا فقال : وليتهم إذ أشركوا بربهم الذى لا ينبغي أن يشرك به — أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن ينفع ويضر ، لا من لا اسم له فضلا عن المسمى ، بل من لا يعرف له وجود فى الأرض ولا فى السماء ، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه ، ثم زاد على ذلك فقال : وماتلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل وماهى إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية من المعانى .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) أى دع هذا الحجاج وألق به جانباً فإنه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم فى الضلال .

(وصدوا عن السبيل) أى وصرفوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ما هم عليه .

(وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجترأه للآثام والمعاصى فلا هادى له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة . ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمَحِّتَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » وقوله : « إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » . ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى لهم عذاب شاق فى هذه الحياة بالقتل والأسر وسائر الآفات التى يصيبهم بها .

(وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) أى ولتعذيب الله إياهم فى الدار الآخرة أشد من تعذيبه إياهم فى الدنيا وأشق لشدته ودوامه .

ثم أياهم من صرف العذاب عنهم فقال :

(وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) أى وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله ، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يأذن لأحد فى الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ جُكُمًا عَرَبِيًّا، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ (٣٩) .

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعت ، والأكل : مايؤكل ، والظل : واحد الظلال والظلول .
والأظلال ، والأحزاب : واحد حزب ، وهو الطائفة المتحيزة أى المجتمعة لشأن
من الشئون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواقى : الحافظ ،
والأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد على
حسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأم الكتاب : أصله
وهو علم الله تعالى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه للكافرين من العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة -
أتبعه بذكر ثواب المتقين فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم أردفه بذكر فرح
المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه ، وإنكار بعض منهم لذلك ، ثم حث
الرسول صلى الله عليه وسلم على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره ، ثم ختم
هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته صلى الله عليه وسلم
كقولهم : إنه كثير الزوجات ، ولو كان رسولا من عند الله لما اشتغل بأمر النساء .

وخلاصة الجواب - إن محمدا ليس ببدع من الرسل ، فكثير منهم كان له أزواج
وذرية ولم يقدح ذلك فى رسالتهم ، وكقولهم : إنه لو كان رسولا من عند الله لم يتوقف
فيما يطلب منه من المعجزات ، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله إن شاء
أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وقولهم : إن ما يخوفنا به من
العذاب وظهور النصرة له ولقومه لم يتحقق بعد فليس بنبي ولا صادق فيما يقول ،

فأجيبوا عن ذلك بقوله : لكل أجل كتاب : أى إن لكل حادث وقتا معيننا لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدعون .

الإيضاح

(مثل الجنة التى وعد المتقون) أى فى نقصه عليك صفة الجنة التى وعد الله لمتقين وأعظم إياها كفاء إخبارهم له وإنبأهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له .

(تجرى من تحتها الأنهار) سارحة فى أرجائها وجوانبها يصرفونها كيف شاءوا وأين أرادوا .

(أكلها دائم) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب التى لا تنقطع عنهم ولا تبذل . (وظلها) كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة كما قال تعالى : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَرِيرًا » .

وبعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث - بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم فقال :

(تلك عقبي الذين اتقوا) أى هذه الجنة عاقبة من اتقوا ربهم فأقلعوا عن الكفر والمعاصى واجتراح السيئات ، وعنّت وجوههم للحى القيوم وخافوا يوما تشيب من هوله الولدان وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين فقال :

(وعقبي الكافرين النار) أى وعاقبة الكافرين بالله النار ، بما اقترفوا من الذنوب ودنسوا به أنفسهم من الآثام .

وفى الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين ، وقاله بالرتاج على الكافرين .

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين : فئة فرحت بنزول القرآن وفرقة أنكرته وكفرت ببعضه فقال :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله ابن سلام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن جماعتهم الذين تحزبوا وتألبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقى نجران وأشياهم - من أنكر بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتابهم وشرائعهم .

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فى شأنه صلى الله عليه وسلم - بين بإيجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين فقال :

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم صادعا بالحق ولا تكثر من ينكره : إني أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئا سواء ، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره وأطبقت عليه الشرائع والكتب كما قال : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » وذلك ما دلت الدلائل التى فى الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له والاعتراف به . وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(إليه أدعو) أى إلى طاعته وإخلاص العبادة له وحده أدعو الناس .

(وإليه مآب) أى وإليه وحده مرجعى ومصيرى ومصيركم للجزاء ، ولا خلاف بيننا فى هذا ، فالعجب لكم أن تنكروا المتفق عليه وتختلفوا فيما لا محل للخلاف فيه .

وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة ، فقوله : (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) توحى إلى ما جاء به التكليف ، وقوله (إليه أدعو) تشير إلى مهام الرسالة . وقوله : (وإليه مآب) تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة .

ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلا بلغات أقوامهم فقال :

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب . أنزلنا عليك القرآن حكما عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره . وسمى القرآن حكما : أى فصلا للأمر على وجه الحق - لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج إليه المكفون ليصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركون فيها فقال :

(وأئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ابتغاء رضاهم كالتوجه إلى قبتهم وعدم مخالفتهم فى شىء مما يعتقدونه . (مالك من الله من ولى ولا واق) أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينتذك منه إن هو أرد عقابك ، ولا واق يقيك عذابه إن هو عذبك ، فاحذرن تتبع أهواءهم وتتهيج نهجهم وقد تقدم أن مثل هذا من وادى قوهم : (إياك أعتى واسمعى يا جاره) فهو إنما جاء تقطع أطاع الكافرين وتهيج المؤمنين على الثبات فى الدين لا للنبي صلى الله عليه وسلم فهو مكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مهييج . ونزل : لما عابت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ، فقالوا لو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى وكما أرسلناك رسولا بشرى ، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرى يا كلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام . وكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .
وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة وعلمن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين .
وناهيك بأم المؤمنين عائشة وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الخيرة » ومن ثم كانت أكثر من حدث عن رسول الله بعد أبي هريرة وأكثر من حدث عن شمائله وأخلاقه في السر والعلن ، ومنها علم المسمون كثيرا من أحكام دينهم ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفتحون إليها للحديث والتفتي وكانت تصابهم وتجاهلهم وتلزمهم الحجة ولا يجردون مَعْدِلًا عن التسليم برأيها .
وروى أن المشركين طعنوا في نبوته لعدم إتيانه بما يفترحونه من الآيات فنزل قوله :

(وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) أى وما كان فى وسع رسول من الرسل أن يأتي من أرسل إليهم بمعجزة يفترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن فى الإتيان بها حكما ومصالح لعباده ، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر وغناء لمن تفكر وتدبر ، ولكنهم أبوا إلا التمدى فى الغواية والضلال كما تقدم من مقل عبد الله ابن أبي أمية .

والآيات المقترحة لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة فى أزمان يعلمها الله ، وقد جعل لكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس ، ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئره أو أن يجعل له مهد ينام فيه ؟ كذلك لاحكمة فى إنزال الآيات التى اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله :

(لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب مما خوفوا به نحاصل فى غير وقته ، ولا نبوة بحاصلة فى غير الزمان المقدر لها ، فهو سوى وعيسى

ومحمد عليهم السلام جاءوا فى أزمنة رأى الله الصلاح فى وجودهم فيها لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وأجلهم ، كلها كتبت فى أجال ومدد معينة لا تقديم فيها ولا تأخير ونحو الآية قوله (لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ) .

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله فى حجر معينة ووزع بينهم العمل على نظم خاصة فى أوقات معينة ولهم مناهج يتبعونها فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أَمَا كنهم ثم يعودون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل ، فالدنيا قد جعل الله لها نظاما على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه ، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة ، وظهرت نجوم وفيت أخرى ونبت زرع وحصد آخر ومات نبي وفام آخر وامتد دين وانتشر وتقلص دين ونسخ .

وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى ، وذلك تابع لما فى النهج الأصلى ، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كعصر فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان ، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى النهج المرسوم ، وهكذا تنسخ آية من القرون ويؤتى بغيرها كما ينسخ زرع بزراع وليل بنهار ، وقوم بقوم ، ودين نبي بآخر فى ميقاته المنعين فى عامه تعالى ، وهذا ما أعناه سبحانه بقوله :

(يمحوا الله ما يشاء ويثبت) وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لا تندقض فيها بل هى داخلية فيما سلف :

- (١) قال الحسن : يمحوا الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله .
- (٢) وقال عكرمة : يمحوا الله القمر ويثبت الشمس .
- (٣) وقال الربيع : يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته .
- (٤) وقال السدى : يمحوا الله القمر ويثبت الشمس .

(٥) وقال آخرون : يحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله .

(٦) وقال آخر : يحو الله الحن والمصاب بالدعاء .

(وعنده أم الكتاب) هو علم الله ، وجميع ما يكتب في صحف الملائكة لا يقع حيثما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه فهو أم لذلك فكأنه قيل يحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء وهو ثابت عنده في علمه الأزلى الذى لا يكون شئ إلا على وفق ما فيه .

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

شرح المفردات

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذى يكرر على الشئ فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب ، والمكر : إرادة المكروه في خفية ، وعقبى الدار : أى العاقبة الحميدة ، والأمر : أصل الشئ وما يجري مجراه كأم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

المعنى الجملى

سبق أن ذكر أنهم اقترحوا عليه الآيات استهزاء به وطلبوا استعجال السيئة التى تعد لهم بها، وكان صلى الله عليه وسلم يتقى وقوع بعض ما تعدوا به ليكون زاجرا

لغيرهم ، ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهيمه ماسيناهم من الجزاء فعلىنا حسابه ، وهل هم فى شك من حصول ما توعدناهم به وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها وقتل أهلها وأسره وتشريدهم ، والله يحكم فى خلقه كما يريد وقد حكم المسلمين بالغز والإقبال ، وعلى أعدائهم بالانهيار والإذلال - ثم بين أن قومه ليسوا ببدع فى الأمر فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم ولم يكن مكرهم ليضيرهم شيئا فكانت العقابة للمعتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب .

مَنْ حَسَنَ الْعَاقِبَةُ ؟ ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها وأيده بالأدلة والحجج وفى شهادته غنى عن شهادة أى شاهد آخر ، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه فى كتبهم .

الإيضاح

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلما عليك البلاغ وعلينا الحساب) أى إن ترك أيها الرسول فى حياتك بعض الذى نعده هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم ، أو تتوفاك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طلب صلاحهم ولا فسادهم ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيرا نخير وإن شرا فشر ، ونحو الآية قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

(أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أشك أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ، ولم يروا أنا نأتى الأرض فنفنتحها لك أرضا بعد أرض ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ، ونذيرا بما سيحل بهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة لو تدبروا ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » .

(والله يحكم لامعقب الحكمة) أى والله يحكم وحكمه النافذ الذى لا يرد ، ولا يستطيع أحد أن يبطله وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والسير على نهج المساواة وترك الظلم ، وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وضع من السنن العامة ، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ربحهم لما سكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

(وهو سريع الحساب) فعما قريب سيمحاسبهم فى الآخرة كفاء ما دنسوا به أنفسهم وran على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، فلا تستبطن عقابهم فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب .

ثم بين أن قومه ليسوا يبدع فى الأمم فقد مكر كثير من قبهم بأنبيائهم فاخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فقال :

(وقد مكر الذين من قبلهم) أى وقد مكر كثير من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كما فعل نمرود بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله للتفسدين .

وفى هذا نسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتصيير بأن العاقبة لا محالة له .
(فله المسكر جميع) أى إن مكر الماكرين لا يضر إلا باذنه تعالى ولا يؤثر إلا بتقديره ، فيجب ألا يكون الخوف إلا منه تعالى .

وفى هذا أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم .
(يعلم ما تكسب كل نفس) فيعصم أولياءه ويعاقب الماكرين بهم ليوفى كل نفس جزاء ما كسبت .

وفى هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين .

ثم أكد هذا التهديد بقوله :

(وسيعم الكفار لمن عقبي الدار) أى وسيعم الكفار إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة ويدخلون النار . لمن العاقبة المحمودة إذ ذاك وإن جهدا ذلك من قبل ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشققت من اليمن فقال له عليه السلام هل تجدنى فى الإنجيل رسولاً؟ قال لا فأُنزل الله تعالى :

(ويقول الذين كفروا لست مرسل) أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسائلك ، لست رسولاً من عند الله أرسلتك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وترعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له وننقذهم من عبادة الأصنام والأوثان وتصلح حال اجتماع البشرى وتمنع عنه انظلم والفساد .

(قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) أى قل حسبي الله شاهدا بتأييد رسالتى وصدق مقالتي إذ أنزل على هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

(ومن عنده علم الكتاب) وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأضرابه فإنهم يشهدون بنعته فى كتابهم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام والجارود وقيم الدارى وسلمان الفارسى رضى الله عنهم .

خلاصة هذه السورة

ترى مما تقدم فى تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية :

(١) إقامة الأدلة على التوحيد بما يرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وهذا تفصيل لما أجمله فى السورة

قبلها من قوله : « وَكَأَيُّ مَوْءِدٍ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

(٢) إثبات البعث ويوم القيامة ، والتعجب من إنكارهم له .

(٣) استعجابهم العذاب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه واقع بهم لاحالة كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة .

(٤) بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه وتكتب عليه ما يكتبه من الحسنات والسيئات بأمر الله .

(٥) ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسبل والزبد الرابي .

(٦) بين حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب وأقاموا الصلاة وأنفقوا في السر والعلن . وبيان ما لهم يوم القيامة .

(٧) بيان حال الذين يفتضون عهد الله من بعد ميثاقه وفسدون في الأرض وبيان ما لهم .

(٨) إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لا شريك لله .

(٩) وصف الجنة التي وعد بها المتقون وبيان أنها مآل المتقين ومآل الكافرين النار وبئس القرار .

(١٠) بيان أن كثيرا من أساموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب .

(١١) بيان مهمة الرسول وأن خلاصة ما جاء به - عبادة الله وحده . وعدم الشرك به ، ودعاؤه لطلب النفع ودفع الضر وأن إياه المرجع والمآب .

(١٢) بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها .

(١٣) تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم وأُمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم .

(١٤) إن جميع الرسل صلوات الله عليهم كان لهم أزواج وذرية .

(١٥) إن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يفعلونها كلما أرادوا ، وإنما هي بإذن الله وإرادته .

(١٦) بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هي محو وإثبات وموت وحياة فيزال الله قوماً ويوجد آخرين ، وكل ذلك محفوظ في علم الله الذى لا تغيير فيه ولا تبدل .

(١٧) إن مهمة الرسل إنما هي التبليغ ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فامر ذلك إلى الله ولا يعنى الرسول أن يحصل فى زمنه أو بعد وفاته .

(١٨) إن انتقام الله من المكذبين قد بدأ فى حياة الرسول بقتل أعدائه وأسرمهم وتشريدهم فى البلاد .

(١٩) إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس بيدع جديد ، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم وكان النصر حليف المتقين ونكل الله بالقوم الظالمين .

(٢٠) إلحاف الكافرين فى إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم ، مع بيان أن الله شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه ، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته صلى الله عليه وسلم فى كتبهم وتبشيرها بها .

سورة إبراهيم

هي مكية وعدد آياتها ثنتان وخمسون .

وارتباطها بالسورة قبلها من وجوه :

(١) إنه قد ذكر في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكما عربيا ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا .

(٢) إنه ذكر في السورة السالفة قوله : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وهنا ذكر أن الرسل قالوا : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » .

(٣) ذكر هناك أمره عيبه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكي عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

(٤) اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضا .

(٥) ذكر هناك رفع السماء بغير عمد ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

(٦) ذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَقِيلَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) .

شرح المفردات

الظلمات : الضلالات ، والنور : الهدى ، وإذن ربهم : تيسيره وتوفيقه ،
والعزيز : الغالب ، والحديد : الحمود انتهى عليه بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له أبداً ،
ويل : هلاك ، يستحبون : يختارون ، سبيل الله : هو دينه الذى ارتضاه ، يبعثونها :
يطلبون لها ، عوجا : زبغا وعوجاجا ، والاسان : اللغة .

الإيضاح

(ان) تقدم منا أن بينا في سورتي يونس وهود طريق قراءته والمعنى المراد منه
بما أغنى عن إعادته هنا .

(كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول .

(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى لتتقذ الناس من ظلمات الضلالة
والكفر إلى نور الإيمان وضياءه ، وتبصر به أهل الجهل والعمى ، سبل الرشاد والهدى ،
بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات المرشدة إلى النظر فى حقائق الكون الدالة
على وحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له وأن الواجب عبادته وحده ، ثم دعاؤه لجلب
النفع وكشف الضر ، وفيها أيضا سعادة البشر وصلاحهم فى الدنيا والآخرة .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه ولطفه بهم ، بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم
فيسلكون طرق الفلاح والصلاح .

(إلى صراط العزيز الحميد) أى إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الذى ارتضاه
الله لخلقته وشرعه لهم ، وهو العزيز الذى لا يغالب ، الحمود فى جميع أفعاله وأقواله
وأمره ونهييه .

ونحو الآية قوله : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ،
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ « الآية ،
وقوله : « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ » الآية .

ثم بين ما سلف بقوله :

(الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) أى هو الله المنتصف بملك ما فيهما
خلقا وملكا وتصرفا وتديرا .

وهذه الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان ، وأنه المنفرد بالعظمة والسلطان ،
قد كورت فى كثير من سور الكتاب الكريم للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا
الدين أن يكون فى المسلمين حكماء ربانيون يتفهمون حقائق هذا الكون ويدركون
أسرار بدائعه ، ويستخرجون للناس مافى باطن الأرض وينتفعون بما فى ظاهرها ،
ويتأملون فيما فى السموات من بديع الصنع وما تقدمه لنا من الخير العميم الذى ينتفع
منه الإنسان والحيوان فى مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وسائر حاجاتهم ومراقبتهم .
وجاء فى سورة يوسف قوله تعالى توبيخا للفاصلين وحثا لهم المستبصرين :
« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

ومع كل هذا قوا أسفا رأينا كثيرا من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح
مساء - يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمعناها ولا المراد منها
والاستبصار بما تنطوى عليه من المقاصد والمراعى ، ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر
الخبز حين الجوع كافيا فى الشيع ، والنظر إلى الماء كافيا فى الرى .

ثم تواعد الذين جحدوا آياته وكفروا بوحدانيته فقال :

(وويل للكافرين من عذاب شديد) أى وهلاك بشديد العذاب يوم القيامة
لمن كفر بك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد لخالق السموات والأرض ،

وترك عبادة من لا يملك لنفسه شيئاً ، بل هو مملوك له تعالى لأنه بعض مافى السموات والأرض .

ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث .

(١) (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) أى إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا ويعملون لها ويتمتعون بذاتها ويقتربون الآثام ويرتكبون الموبقات ويؤثرون ذلك على أعمال الآخرة التى تقر بهم إلى الله زلفى وينسون يوماً تجازى فيه كل نفس بما عملت ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعاً .

(٢) (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله واتباع رسونه فيما جاء به من عنده ، أن يؤمنوا به ويتبعوه ، لما زين لهم الشيطان من سلوك سبيل الضعفاء . وران على قلوبهم من الفجور والعصيان ، والبعد عن كل ما يقرب إلى الرحمن .

(٣) (ويبغونها عوجاً) أى ويطلبون لها الزبغ والعوج وهى أبعد ما يكون من ذلك ، فيقولون لمن يريدون صدهم وإضالهم عن سبيل الله ودينه ، إن ذلك الدين ناء عن الصراط المستقيم وزانغ عن الحق واليقين ، وإنك لتسمع كثيراً من المحدثين يقول إن القوانين الإسلامية فى الحدود والجنائيات شديدة غاية الشدة وإنما تصالح للأمم العربية فى البادية ، لا للأمم التى أخذت فسطاً عظيماً من الحضارة : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » فتلك شريعة دانت هبة أمة غيرت وجه البسيطة وملك ناصية العالم ردحاً من الزمان وكانت مضرب الأمثال فى العدل وترك الجور وثلث عروش الأكامرة والقيصرة وامتلكت بلادهم وأزالت عزهم وسلطانهم ، إلى أن غير أهلها معالمها فأركسهم الله بما كسبوا ، فبدل عزهم ذلاً وسعادتهم شقاء ، وتلك سنة الله ، إن الأرض يرثها عباده الصالحون لا سعادتها . ثم حكم عليهم بما يستحقون فقال :

(أولئك في ضلال بعيد) أى فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة وصددهم عن الدين وابتغائهم له الزيف والنعوج - فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم فلاح ، وأنى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم وزين لهم الفساد والغى فيرون حسنا ما ليس بالحسن وقبيحا ما ليس بالقبيح ؟ .

ثم بين سبحانه كمال نعمته وإحسانه على عباده فذكر أنه يرسل رسله إلى أقوامهم بلغاتهم كي لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه فقال :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم من قبلك وقبل قومك إلا بلسان قومه الذين أرسلناه إليهم ليفهمهم ما أرسل به إليهم من أمره ونهييه سمهولة ويسر ، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم وهو يتلى عليهم ، فأى عذر لهم فى ألا يفقهوه ، وما الذى صددهم عن أن يدرسوه . ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام . وحلال وحرام ، وإصلاح لنظم المجتمع ليسعدوا فى حياتهم الدنيا والآخرة ؟ .

والنبي صلى الله عليه وسلم وإن أرسل إلى الناس جميعا بلغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة ، فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه لهم حتى يصير مفهوما لهم كما فهموه . ولو نزل بلغات من أرسل إليهم وبينه لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وقد يقضى ذلك إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون .

وبعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر فى عدم فهم شرائعه - ذكر أن الهداية والإضلال بيد الله ومشيئته فقال :

(فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى إن الناس فريقان : فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام فاتبع سبيل الرشاد؛ وفريق رانت على قلبه

الغواية والضلالة بما اجترح من الآثام ، وأوغل فيه من المعاصي والذنوب ، وذلك كله بنفديره تعالى ومشيتته لا راد لقضائه ولا دافع لحكمه .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز فلا يغلب مشيئته غاب ، الحكيم فى صنعه ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة فى خلقه ، والنواميس التى وضعها لصالح حال عباده وضلالهم : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)
وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) .

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يده عليه السلام ، والظلمات : الكفر والجهالات ، والنور : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به ، وذكركم : أى عظيمهم ، وآيام الله : وقائمه فى الأمم السابقة ويقال فلان عالم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم دى قار ويوم الفجار قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
والصبار : كثير الصبر ، والشكور : كثير الشكر ، يسومونكم : يكلفونكم ، بلاء :
أى ابتلاء واختبار ، وتأذن : أى آذن وأعلم ، وحيد مستوجب للحمد لذاته وإن
لم يحمد أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم
من الظلمات إلى النور ، وأن فى هذا الإرسال نعمة له ولقومه - أتبع ذلك بذكر
قصص بعض الأنبياء وتفصيل ما لاقوه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد ،
لما فى ذلك من التسمية له وجميل التأسى بهم ، وبيان أن المقصود من بعثة الرسل
واحد وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآيتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى كما
أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ،
أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل وأيدناه بالآيات التسع التى سلف ذكرها فى سورة
الأعراف وأمرناه بأن يدعواهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ليخرجوا من ظلمات الجهل
والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وذكرهم بأيام الله) أى عظمهم مرغبا لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى من
قبلهم ممن آمن بالرسول فى الأمم السابقة ليكون فى ذلك حافز لهم على العمل ويكون
لهم بمن سلف أسوة - ونحوها : موعدا بتذكيرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب
الرسول من الأمم الغابرة كعاد وثمود ليكون لهم فى ذلك مزدجر وليجذبوا أن يحل
بهم مثل ما حل بغيرهم .

وأيام الله في جانب موسى عليه السلام منها ما كان محنة و بلاء وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده ، ومنها ما كانت نعمة كأنجائهم من عدوهم وفق البحر لهم وإنزاله المن والسلوى عليهم .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن في ذلك التنبية والتذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته لكل صبار في المحنة والبلية ، شكور في المنحة والعطية . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطى شكر . وفي الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » .

وفي هذا إيماء إلى أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبدا لأنه إما في مكروه يصبر عليه وإما في محبوب يشكر عليه ، والوقت في هذه الحياة ذهب . فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسد في خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا فقد كفرنا بالنعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة ، فليحذر كل امرئ أن يضيع حياته بلا عمل وليخف على وقت يضيع ثم بعده عذاب سريع .

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه فقال : (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى اذكروا لقومك حين قول موسى لقومه يا قوم تذكروا أنعام الله عليكم إذ أنجاكم من فرعون وآله ، حين كانوا يذيقونكم العذاب ويكلفونكم الأعمال ما لا يطاق مع القهر والإذلال ، ويذبحون أبناءكم ويبيعون نساءكم على قيد الحياة ذليلات مستضعفات ، وهذا أرزء من أشد الأرزاء . وأعظم ألوان البلاء ، قال شاعرهم :

ومن أعظم الرزء فيا أرى بقاء البنات وموت البنينا
وفي ذلك التذكير عبرة لهم لو يعتبرون .

(وفي ذللكم بلاء من ربكم عظيم) أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من نعمة التعذيب والإذلال وقتل الأولاد واستحياء البنات ، ثم نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والقهر ، فالابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة كما قال « وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » وقال : « وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » .

(وإذ تأذن ربكم) أى واذا كروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده فقال :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) أى لئن شكرتم ما خولقكم من نعمة الإنجاء وغيرها بطاعتي فيما أمركم به وأنهيكم عنه لأزيدنكم من نعمي عليكم ، وقد دلت التجارب أن العضو الذى يناط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة ، وإذا عطل عن العمل ضمير وضعف ، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت ، وإن أهملت ذهبت . أخرج البخارى فى تاريخه والضايف فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة - وفيها - من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة » . والخلاصة - إن من شكر الله على ما رزقه وسع عليه فى رزقه ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زاد فى طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة زاده الله صحة ، إلى نحو أولئك من النعم .

(ولئن كفرتم) النعم وجحدتموها فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها .

(إن عذابى أشد) بحرمانكم منها وسلبكم ثمراتها فى الدنيا والآخرة ، فتعذبون فى الدنيا بزوالها ، وفى الآخرة بعذاب لا قبل لكم به ، وفى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » .

ثم بين سبحانه أن منافع الشكران ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم ، أما المعبود المشكور فهو متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضره الكفر فلا جرم قال :

(وقال موسى إن تكفروا أأنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) أي إن تجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليكم ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعا ، فأضررتكم بالكفر إلا أنفسكم ، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد ، وإن الله غني عن شكركم وشكر غيركم وهو الحمود وإن كفر به من كفر ، وهذا كقوله : « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » الآية وقوله : « فَكَفَرُوا وَنَوَلُوا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

وقد يكون مرعى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب .

الْمَ يَا تِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

الريبة : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر ، وفاطر السموات والأرض أى موجدتهما على نظام بدیع ، والسلطان : الحجة والبرهان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما ذكر به موسى قومه مما أولاهم به ربهم من نعمة ورفع عنهم من نقمة ، ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ووعيده بالعذاب لمن كفر ، ثم حذرهم بأن الكفران لا يضير ربهم وأنه غنى عن حمدهم وحمد من فى الأرض جميعا - أخذ يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السالفة والأجيال البائدة بأسلوب طلي ومقال جلي ، فذكر القول أولا على سبيل الإجمال ، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم ، أقام فيها الرسل الحجة على أممهم ودحض ما تمسكوا به من الترهات والأباطيل .

الإيضاح

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) أى أَلَمْ يَأْتِكُمْ خَبَرُ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادَ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُنْكَذِبَةِ لِلرُّسُلِ الَّتِي غَابَ عَنِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَعِنْدَ اللَّهِ إِحْصَاؤُهَا .

ثم فصل هذا النبأ وفسره بقوله :

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَيِّنَاتِ

الباهرة ، وبين كل رسول لأمة طريق الحق ودعاهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

(فردوا أيديهم في أفواههم) أى عضوا بنان الندم غيظا لما جاءهم به الرسل ، وضجرا انفرتهم من استماع كلامهم إذ سبهوا أحلامهم وشتمو أصدانهم ، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : « عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » .

وقال أبو عبيدة والأخفش ونعمت فالأ هو مثل والمراد أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت ، قد رد يده في فيه .
(وفالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) أى إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به من البينات التي أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم ، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلائلها على صدق رسالتهم .

(وإنا أنى شك مما تدعوننا إليه مريب) أى وإنا أنى شك مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله ووحدايته ، وجملة ما جئتم به من الشرائع .

وخلاصة مقالهم — إنهم جاحدون نبوتهم قاطعون بعدم صحتها ، لأن ما جاءوا به من التعاليم والشرائع مما يشك في صدقه وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله . فرد الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحقاء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فالت رسلكم أنى الله شك ؟) أى أنى وجود الله شك ، وكيف ذلك والقطرة شاهدة بوجوده ، ومجوبة على الإقرار به ، فالاعتراف به ضرورى لدى كل ذى رأى حصيد كما جاء في الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الأدلة الموصلة ، إلى ذلك ومن ثم وجه الرسل أنظار أممهم إلى هذه الأدلة فقالوا :

(فاطر السموات والأرض) أى هو الذى خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق

ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكاه ، وقد جاء هذا الوصف في محاورات الأنبياء جميعا ، وهو نفس الوصف الذي جاء في أول السورة على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا يعلم أن كل نبي جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السموات والأرض . ولما أقاموا الدليل على وجوده وصفوه بكمال الرحمة بقولهم :

(يدعوكم) إلى الإيمان به بواسطة إرساله إيانا لنخرجكم من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدةانية وإخلاص العباد للواحد القهار .

(ليغفر لكم من ذنوبكم) أى يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم وهى الذنوب التى بينكم وبين ربكم لا المقاطم وحقوق العباد .

والمتنبع لأسلوب الكتاب الكريم يرى أن كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بالنقض (من) كقولهم : « وَاتَّقُوا وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » وقوله : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » لأنه يخاطبهم فى أمر الإيمان وحده .

وفى المواضع التى يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجيء بدون ذكر (من) كقولهم : « ذُنُوبَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » لأن المغفرة منصرفة إلى معاصى ومتوجهة إليها .

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى وقت ساء الله وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به ، وإلا عاجلكم بالهلاك وعذاب الاستئصال جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد وإخلاص العباد للواحد القهار .

ثم حكى الله تعالى رد الأمم على مقالة الرسل ، وهو يتضمن ثلاثة أشياء :

(١) (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) فلا فضل لكم علينا ، فلم خصصتم بالنبوة وأطلعكم الله على الغيب وجعلكم محالطين لزمر الملائكة دوننا ، إلى أنه لو كان الأمر

كما تدعون لوجب أن تفارقونا في الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك .

(٢) (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) ولا حجة لكم على ما تدعون وليس من حصافة العقل أن نترك أمرًا قديمًا أن يقوم الدليل على خطئه .

(٣) (فأؤنا بسطون مبين) أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعون من النبوة . أما ذكر السموات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفل بهما ، والعجائب الأرضية والسموية لا نعقلها ، والبشر لا يخضعون إلا لمن يأتيهم بما هو خارج عن طور معتادهم وحينئذ يعظمونه وبيجونه . وهذه المشاهدات لا نرى فيها شيئًا خارقًا للعادة ، وإذا فلا يمن ولا تسليم إلا بما هو فوق طاقتنا كقرب العصاحية ونقل الجبال وما إلى ذلك .

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الأنبياء جوابهم عنها فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا منصب يمن الله به على من يشاء من عباده ، كما لا يمنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب وأن يحرم الجمع العظيم منه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا وما اقترحتموه من الآيات فأمره إلى الله إن شاء أظهره وهو زائد على قدر الكفاية ، وذلك ما أومئوا إليه بقولهم :

(وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا بإذن الله) أى بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك في قدرتنا .

وبعد أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذابهم قدر ما يستطيعون ، فقال لهم الأنبياء إنا لا نخاف تهديدكم

ولا وعيدكم ، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه ولا نقيم لما نقولون وزنا ولا نأبه به ، وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم :

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في دفع شرور أعدائهم عنهم وفي الصبر على معاداتهم .

ثم زادوا أمر التوكل توثيقا وتوكيدا فقالوا :

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة وأوجب علينا سلوك طريقها وأرشدنا إلى طريق النجاة ، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها .

(ولنصبرن على ما آذيتونا) أى ولنصبرن على إيذائكم بالاعتداء واقتراح الآيات ونحو ذلك مما لاخير فيه وندعوكم لعبادة الله وحده ليكون ذلك منا شكرا على نعمة الهداية .

ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان أن إيذائهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم فقالوا :

(وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أى وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم ويحتملوا كل أذى في جهادهم ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات .

ومن عنده مال أو علم فلينفع به الناس وليكن كالنهر يسقى الزرع والشمس تضيء العباد وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذا ، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا فهم هداة بطاعتهم ، ولذاتهم في قلوبهم ومنهم تنقل إلى الناس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ مِنْ خَافِ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ
وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) .

شرح المفردات

لنعودنَّ : لتصبرن ، والملة : الدين والشريعة ، والمقام : موقف الحساب ،
واستفتحوا : أى طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء ، وخاب : هلك ، والجبار :
العاثى المتكبر على طاعة الله ، والعنيد : المعاند للحق المخالف له ، ومن ورأه : أى من
بعد ذلك ينتظره ، والصدید : ما يسيل من جلود أهل النار ، يسیغه : أى يستطيعه
يقال ساع الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة ، يأتيه الموت : أى تأتیه أسبابه وتحيط به
من كل جهة ، عذاب غليظ : أى شديد عبر منقطع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما دار من الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم وذكر الحجج التي
أدلى بها الرسل وقد كان فيها المنفع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق ، ومن كان له
قلب يعى به الحكمة وفصل الخطاب - ذكر هنا أنهم بعد أن أحموا لم يجدوا وسيلة
إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المجوج المغلوب في الخصومة ، فخيروا
رسلهم بين أحد أمرين : إما الخروج من الديار ، وإما العودة إلى الملة التي عليها الآباء
والأجداد ، فأوحى الله إلى أنبيائه أن العاقبة لكم وستدور عليهم الدائرة ، وستحلون
محلهم في ديارهم وسيعذبون في الآخرة بنار جهنم ويرون ألوانا من العذاب
لا قبل لهم بها .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لرسالهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا) أى وقال الذين كفروا بالله لرسالهم حين دعوهم إلى توحيدهم تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها إلا أن تعودوا في ديننا الذى نحن عليه من عبادة الأصنام كما قال قوم شعيب له ولئن آمن به : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَ شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا » الآية ، وكما قال قوم لوط : « أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ » الآية ، وقال إخبارا عن مشركى قريش : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا » .

وخلاصة هذا - ليكون أحد الأمرين لا محالة : إما إخراجكم ، وإما صيرورتكم في ملتنا ملة الآباء والأجداد وهى عبادة الآلهة والأوثان ، وقد مكن لهم في ذلك أنهم كانوا كثرة وكان أهل الحق قلة كما جرت بذلك العادة في كل زمان ومكان ، فإن الظالمة بكونون متعاونين متعاضدين ، ومن ثم استطاعوا أن يبرموا هذا الحكم بلا هوادة ولا رفق كما هو شأن المعتز بقوته الذى لا يخشى اعتراضا ولا خلافا .

والأنبياء صوات الله عليهم لم يكونوا في ملتهم ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم لكنهم لما نشئوا بين ظهرانيهم وكانوا من أهل تلك البلاد ولم يظهروا في أول أمرهم مخالفة لهم - ظنوا أنهم كانوا على دينهم .

ولما تمادت الأمم في الكفر وتعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم - أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم كما أشار إلى ذلك بقوله : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم) أى فأوحى الله إلى رسله قائلًا لهم : انهلكن من تنهى في الظلم من المشركين ، ولنسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم : (لنخرجنكم من أرضنا) .

وفي ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجراعتهم على نبيه .
وتثبيت وأمر له بالصبر على مايلقى من المكروه كما صبر من كان قبله من الرسل ،
وبيان لأن عاقبة من كفر به الهلاك وعاقبته النصر عليهم كما قال : « سَنَّ اللَّهُ
فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » وقال : « وَتَمْدَّ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنْهُمْ
لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ » وقال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا
أَنَا وَرُسُلِي » .

ثم ذكر السبب في نصرهم عليهم فقال :

(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) أى هكذا أفعل بمن خاف مقامه بين
يدى يوم القيامة ، وخاف وعيدى ذنوبى بطاعتى وتجنب سخطى - أنصره على من
أراد به سوءا وبغى به مكروها من أعدائى ، وأورثه أرضه ودياره .
ثم بين أن كلا من الفريقين الأمم وأرسل طبوا المعونة والتأييد من ربهم وإلى
ذلك أشار بقوله :

(واستفتحتوا) أى واستفتحت الرسل على أممها أى استنصرت الله عليها ،
واستفتحت الأمم على أنفسهم كما قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ
فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْ بَعْدَابِ الْعَالَمِينَ » .
ثم ذكر مآل المشركين وبيّن أن النصر للمؤمنين فقال :

(وخاب كل جبار عنيد) أى وهلك كل متكبر مجانب للحق منحرف عنه .
(من وراء جهنم) أى ومن وراء الجبار العنيد جهنم أى هى له بالمرصاد تنتظره
ليسكنها مخلدا فيها أبدا ويعرض عليها فى الدنيا غدوا وعشيا إلى يوم التناد .
ثم بين شرايه فيها فقال :

(ويسقى من ماء صديد) أى ليس له فى النار شراب إلا ما يخرج من جوفه
وقد خالطه القيح والدم ، وخص بالذكر لأنه ألم أنواع العذاب .

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال :

(يتجرعه ولا يكاد يسيغه) أى يتحساه جرعة بعد جرعة ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته ورداءة طعمه ولونه وريحه وحرارته كما قال : « وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ » وقال : « وَإِنْ يَسْتَعِيشُوا يَعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ » .

ثم ذكر ما يحيط به من الأهوال فقال :

(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) أى وتحيط به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله فى نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، لكنه لا يموت كما قال تعالى : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

ثم أكد شدائدھا وعظيم أهوالھا فقال :

(ومن ورائه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى مؤلم أغلظ من الذى قبله وأمر كما قال تعالى : « وَأَصْحَابُ الشَّالِ . مَا أَصْحَابُ الشَّالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » وقال : « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ تَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ » .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَنْعَمَّا لَهُمْ كَرَمًا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون فى هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التى سلف وصفها - بين هنا أن ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا . فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح فى يوم عاصف فذهبت به فى كل ناحية ، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئا ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق سواهم ، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه .

الإيضاح

(مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) أى مامثل أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء - إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهب به فى يوم عاصف فنسفته ولم تبق له أثرا ، فهم يوم القيامة لا يجدون منها شيئا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وإطعام الجائع ، وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفي فائدتها لهم إذ ذاك فقال :

(لا يقدرון مما كسبوا على شيء) أى لا يقدرون يوم القيامة على شيء من أعمالهم فى الدنيا ، فلا يرون لها أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب ، كما لا ينتفع بالرماد إذا أرسل عليه الريح فى يوم عاصف .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا »

وقال: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَمَئُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَآلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظَامُونَ »
 وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت «يارسول الله إن ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال لا ينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال .

(ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقها عليه ، ومن قدر على ختمهما على أتم نظام وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير . فهو قادر على أن يفتنكم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بمتنع ولا متعذر عليه .

ومثل الآية قوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزَ بِمُخْلِقَيْنِ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْزِيَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وخلاصة ذلك — إنهم بعدوا في الضلال وأمعنوا في الكفر بالله مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة ، وأنه هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخشى عقابه .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِنٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) .

شرح المفردات

• برزوا : أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم ، والضعفاء : واحد هم ضعيف ، ويراد به ضعيف الرأى والفكر ، والذين استكبروا : هم رؤسائهم الذين استنفروهم ، والتبع : واحد هم تابع كخادم وخدم ، مغنون : أى دافعون ، ومحيص : أى منجى ومهرب ، والسultan : التسلط ، بمصرخكم : أى بمغيشكم ، يقال استمصرخنى فأصرخته : أى استغاثنى فأغثنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يلقاه الأستقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أحببت فلم تغن عنهم شيئاً - ذكر هنا محاورة بين الأنواع المستضعفين والرؤساء المتبوعين وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ، ثم أردفها بمناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد أن ذكر أحوال الأستقياء وبالغ فى بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل .

الإيضاح

(وبرزوا لله جميعا) أى برزت الخلائق كلها برّها وفاجرها لله الواحد القهار:
 أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستتر أحدا .
 (فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى فقال الأتباع لقادتهم
 وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين
 لكم تأمرونا فنأتمر وتنهوننا فننتهى .

(فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء) أى فهل تدفعون عنا اليوم
 شيئا من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .
 وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم .

(قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى وأضاء أنوار بصائرنا
 وأفاض علينا من توفيقه ومعونته لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبل الهدى ووجهنا أنظاركم
 إلى طرق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل فاضلناكم .
 ولما كان هذا القول منهم أمانة الجزع قالوا :

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محييص) أى ليس لنا مهرب ولا خلاص
 مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك — سيان الجزع والصبر فلا نجاة من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أُطْعِمْنَا
 سَادَتَكَ وَكُتُبَاءَنَا فَأَصْلَوْا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ
 لَعْنًا كَبِيرًا » .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التي ستكون بين الأبياع والرؤساء أردفها بالمناظرة التي ستكون بين الشيطان وأتباعه حيث قال :

(وقال الشيطان لما قضي الأمر) أى وقال إبليس مخاطبا أتباعه من الإنس ، بعد أن حكم الله بين عباده فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

(إن الله وعدكم وعد الحق) أى إن الله وعدكم على أسنة رسله بالبعث وجزاء كل عامل على عمله إن خيرا نخير وإن شرا فشر ، ووعدده حق وخبره صدق .

(ووعدتكم فأخلفتم) أى ووعدتكم أن لاجنة ولا نار ولا حشر ولا حساب ، وإن كنّا فنعم الشفيع لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتم موعدى إذ لم أقل إلا بهزجا من القول وباطلا منه فاتبعتموني وتركتم وعد ربكم وهو وليكم ومالك أمركم .

ونحو الآية قوله : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » .
(وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى أجتكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

(إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال وسوستى وتزيينى ، أسرعتم إلى إجابتى واتبعتم شهوات النفوس وأطعتم الهوى وخضتم فى مسالك الردى .

(فلا تلويمونى ولوموا أنفسكم) لأنه ما كان منى إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذ استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم بلا حجة منى ولا برهان بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبيّنات .

ثم حكى سبحانه قول الشيطان حين ذاك لأتباعه فقال :
(ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخى) أى ما أنا بمفيعكم مما أتم فيه من العذاب فأزيل صراخكم ، وما أتم بمفيعى مما أنا فيه من العذاب والنكال .

(إني كفرت بما أشركتمون من قبل) أى إني جعدت اليوم أن أكون شريكا لله فيما أشركتمونى فيه من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا ، وهذا كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ » .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : « إِنَّا بَرَأْنَا مِنْكُمْ وَبِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

(إن الظالمين هم عذاب أليم) أى قل إبليس قطعاً لأطاع الكفار من الإغثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكى الله ذلك عنه ليكون تنبيهاً للسامعين وحضاً لهم على النظر فى عاقبة أمرهم والاستعداد لذلك اليوم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبتهم .

ولما جمع سبحانه فريقى السعداء والأشقياء فى قوله : « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » وبالغ فى وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة - ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم فى ذلك اليوم فقال :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالة رسله ، وعملوا بطاعته فاتتهوا إلى أمره ونهيه ، لسنتين تجرى من تحتها الأنهار ما كثر فيها أبداً لا يتحولون عنها ولا يزولون منها .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم فى الدنيا لكسب الخيرات وللميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأثار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العدة ، فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدوا فى رضاه ونصبوا فى طاعته خوفاً من هول ذلك اليوم العصيب .

(تحييهم فيها سلام) أى يحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم تعظيماً لشأنهم وعناية بأمرهم ، وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى فى وصف دخولهم الجنة « حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَقْبَسَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَيَأْتُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا » كما يحییهم ربهم جلت قدرته إظهارا لرضاه عنهم وإجلالا وإكبارا لهم كما قال : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) .

شرح المفردات

المثل : قول في شيء يشبه بقول في شيء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأول بالثاني ليتم انكشاف حاله به ، ثابت : أي ضارب بعروقه في الأرض ، في السماء : أي جهة العلو ، تؤتي أكلها : أي تعطى ثمرها ، بإذن ربها : أي بإرادة خالقها ، اجنثت : أي استؤصلت وأخذت جنتها ، والقرار : الاستقرار ، القول الثابت : أي الذي ثبت عندهم وتمكن في قلوبهم .

المعنى الجملي

بعد أن بين سبحانه حال الأشقياء ومآل أمرهم وما يلاقونه من الشدائد والأهوال في نار جهنم التي لا يجدون عنها محيصا وذكر أحوال السعداء وما ينادون من فوز عند ربهم — ضرب لذلك مثلا بين حال الفريقين ويوضح الفرق بين الغشيين ، وبه ألبس

المعنويات لباس الحسيات ليكون أوقع في النفس وأتم لدى العقل ، والأمثال لدى العرب هي المهيّج المسلوک والطريق المتبع لإيضاح المعاني إذا أريد تثبيتها لدى السامعين والقرآن الكريم ملئٌ بها والسنة النبوية جرت على منهاجه ، فكثيرا ماتتبع المسائل الهامة بضرَب الأمثال لها لتستقر في النفوس وتنقش في الصدور .

الإيضاح

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين ، كيف ضرب الله مثلا ووضع الموضع اللائق به .

(كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) أى إن الله جلت قدرته شبه الكلمة الطيبة وهي الإيمان الثابت في قلب المؤمن الذي يُرفع به عمله إلى السماء كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » وتُنال بركته وثوابه في كل وقت ، فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءت بركتها وخيرها — بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذية الرائحة التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلبها وزوالها ، وفروعها متصاعدة في الهواء (فيكون ذلك دليلا على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وعلى بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية) فتأتى الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب وتثمر في كل حين بأمر ربها وإذنه ، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى شبه كلمة الحكمة والإيمان بشجرة ثبتت عروقتها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء وهي ذات ثمر في كل حين ، ذلك أن الهداية إذا حلت قلبا فاضت منه على غيره وملأت قلوبا كثيرة ، فكأنها شجرة أثمرت كل حين ، لأن ثمراتها دائمة لامةطوعة ولا ممنوعة ، وكل قلب يتلقى عما يشاكله ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار في المشيم أو سريان الكهرباء في المعادن أو الضوء في الأثير .

وقد روى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول « لا إله إلا الله » وأن الشجرة الطيبة : هي النخلة ، وعن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يئحت ورقها لا صيفا ولا شتاء وتتوأتى أكلها كل حين بإذن ربها ، قال ابن عمر فوقع في نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النخلة . فلما قلنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة ، قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن نكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا » رواه البخارى .

ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تديره ومعرفة المراد منه فقال : (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) أى إن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكيرا للناس ، لأن أنس النفوس بها أكثر ، فهي تخرج المعنى من خفى إلى جلى ، ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وبها يطبق المعقول على الحسوس فيحصل العلم التام بالشيء الممثل له .

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) أى ومثل كلمة الكفر وما شاكلها مثل شجرة خبيثة كالحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت في الأرض ، بل عروقه لا تتجاوز سطحها ، وقد اقتلعت من فوق الأرض . لأن عروقه قريبة منه ، أو لا عروق لها في الأرض ، فكما أن هذه لا ثبات لها ولا دوام ، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت بل هو زائل ذاهب ، وثمره مرّ كريه كالحنظل .

وما أقوى الحق وأثبتته وأكثر نفعه للناس ، فهو ثابت الدعائم متين الأركان مشتمر كل حين كالنخل .

والخلاصة - إن أرباب النفوس العالية وكبار المفكرين هم أصحاب الكلمة الطيبة ، وعمومهم تعطى أمهم نعيم ورزقا في الدنيا . وهي مستقرة في نفوسهم .

وفروعها ممتدة إلى العوالم العلوية والسفلية، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم فيمتد بها المؤمنون . وما أشبههم بالخلة التي لها أصل مستقر وفروع عالية وثمر دائم ويأكل الناس منها صيفا وشتاء .

وأرباب الشهوات والنفوس الضعيفة والمقلدون في العدد أصحاب الكلمة الخبيثة التي لا ثبات لها كالحنظل .

وبعد أن وصف الكلمة الطيبة بما ساف أخير بفوز أصحابها ببغيتهم في الدنيا والآخرة فقال :

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أى يثبتهم بالكلمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة في سلف مدة حياتهم ، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زلهم كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد الموت في القبر المسمى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفي مواقف القيامة فلا يتعمشون ولا يضضرون إذا سئلوا عن معتقدهم ولا تدهشهم الأهوال .

أخرج ابن أبي شبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية : التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملاك إلى الرجل في القبر فقال له من ربك ؟ قال ربى الله ، وقلا وما دينك ؟ قال ديني الإسلام ، وقالوا وما نبيك ؟ قال نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن عثمان بن عفان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » أخرجه أبو داود .

وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضعها . نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب عنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير .

وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة ، والآخرة يوم القيامة والعرض للحساب . وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله :

(ويضل الله الظالمين) أى ويخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه على حسب إرادتهم واختيارهم لسوء استعدادهم وميلهم مع شهوات النفوس وتدسيتها بصنوف الشرور والمعاصي ، سنة الله فى عباده وإن تجد لسنة الله تبديلا . والمراد بالظالمين هنا الكفار لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديدهم فطرة الله التى فطر الناس عليها وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه ملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره ، فإذا دخل قبره أقعد فقبل له من ربك ؟ لم يرجع إليهم شيئا وأنساه الله تعالى ذكر ذلك ، وإذا قيل له من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليه شيئا ، فذاك قوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) » .

(ويفعل الله ما يشاء) أى ويبدد تعالى الهداية والإضلال على حسب ما تقتضيه سننه العامة التى سننها فى عباده ، وعلى حسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما ، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالا ولا ضلال من كان منكم مهتديا ، فإن بيده تصريف خلقه وتقلب قلوبهم يفعل فيهم ما يشاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) .

شرح المفردات

البوار : الهلاك يقال رجل بائز وقوم بؤر كما قال : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » و يصلونها : يقسون حرها ، والأنداد : واحد من ذوات النمل والشبيه ، والمصير : المرجع ، والبيع : الفدية ، والخلال : الحالة والصدقة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بيانا لحالى الفريقين ، وذكر ما يلهمه من التوفيق فى الدارين للسعداء ، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال ، جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشُرور والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعل على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصتهم إلى سوء العاقبة معجّبا رسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه الطامة خصيصى بهم ، بل كانت فتنة شعواء عمتهم جميعا : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

ذاك أنهم بدلوا النعمة كفرا والشكر جحدا وإنكارا ، ولت البلية كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم ثلثوا بإضلال غيرهم فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة :

فلو كان هم واحد لاحتملته ولكنه هم وثنان وثالث

ومن ثم كانت عاقبتهم التى لامرد لها العذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير ؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العظة ، فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم .

و بعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر عبده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها والجد فى مجاهدة النفس والهوى ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ويقرهم من ربههم وينيلهم الفوز لديه فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة ، وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على كرم الله وجهه أنه قال فى هؤلاء البدلين : هم الأتجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين .

الإيضاح

عدد سبحانه الأسباب التي أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم في سوء المنقلب وحصرها في ثلاثة :

(١) (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) أى ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطا لها وججودا بها كآهل مكة الذين أسكنهم الله حرما آمنا يحى إليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوام بيته ، وشرّفهم بإرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بتلك النعمة ، فأصابهم الجذب والقحط سبع سنين دأبا وأسروا يوم بدر وصُفِّدوا فى السلاسل والأغلال وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضمنون بهم ويحتفظون بمواضعهم * ليوم كريهة وسداد ثغر * (وأحلوا قومهم دار البوار) أى وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذى لاهلاك بعده .

ثم بين هذه الدار فقال :

(جهنم يصلونها وبئس القرار) أى هذه الدار هي جهنم دار العذاب التى يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هي لمن أراد الله به النكال والوبال .

(٢) (وجعلوا لله أندادا) أى واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لبس كمثلته شىء ، أندادا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة كما قالوا فى الحجج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

(٣) (ليضلوا عن سبيله) أى لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم ، الصدة والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف ، والوقوع فى حماة الكفر والضلال . ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر بيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أنتم عليه فإنه لا فائدة فى نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

(قل تمتعوا) أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام والسعى فى إضلال الناس والصد عن سبيله . ثم بين جزاءهم المحتوم فقال :

(فإن مصيركم إلى النار) أى إن مرجعكم وموئلكم إليها كما قال : « نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وسمى الله تعالى ذلك تمتعا ، لأنهم تلدزخوا به وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلدزون بالمشتريات من النعم ، وهذا الأسلوب التهمى يستعمل فى التخاطب كثيرا فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتساء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تماديا فى الإعراض عن أوامره واتباعا لشهواته ، فيقول له : كل ما تريد فإن مصيرك إلى الموت ، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع و يقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت فإن مصيرك إلى السيف .

و بعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر خلص عباده بإقامة العبادات البدنية وأداء الفرائض المالية فقال :

(قل لعبادى الذين آمنوا بقيموا الصلاة وبنفقوا مما رزقناهم) أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها وأدوها كما طرب ربكم فى عماد الدين وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . وهى المصباح المؤمن يستضيء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكرا له على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء سدا لخلتهم وإيجادا للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

(سرا وعلانية) أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

(من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لا تنفع فيه فدية ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ولا يصفح عن عقابه لحالته لصديقه ، بل هناك العدل والقسط كما قال : « فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُكُمْ فِدْيَةٌ »

وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقال : « أَتَقْتُوا مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا تَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) .

شرح المفردات

السَّاءُ : السحاب وكل ما علا الإنسان فاضله فهو سماء ، والرزق : كل ما ينتفع به ، والتسخير : التيسير والإعداد ، والفلك : السفن ، دَائِبَيْنِ : أى دائمين فى الحركة لا يفتقران ، يقال دَابٌ فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَائِبًا » آتَاكُمْ : أى أعطاكم ، لا تحصوها : لا تطبقوا حصرها ، والإحصاء : العد بالخصى وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع ، ظلوم : أى نفسه يغفل شكر النعمة ، كفار : شديد الكفران والجحود لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين نعمه حين بدؤوا الشكر بالكفر واتخذوا لله أندادا فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة وشكر الربهم على ما أوتوا من النعم وحثا لهم على الجهاد فى سبيل كلهم ورفقهم ببذل النفس والنفيس وهو المثل لتكمل لهم السعادة فى الدارين - شرع يذكر

وَالشُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، نَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .
 (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان . فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم وما
 تحتاجون إليه فى أمور دنياكم ، والليل تسكنوا فيه كما جاء فى الآية الأخرى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ
 جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فالشمس والقمر يتعاقبان ،
 والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذلك فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا
 فيقصر كما قال تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

(وآتاكم من كل ما سألتموه) أى هيا لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع
 أحوالكم من كل الذى هو حقيق أن تسألوه سواء أسألتموه أم لم تسألوه ، لأن هذه
 الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى معدة لهم ، فلم يسأل الله أحد
 فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطها
 للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تطبقوا عدد أنواعها فضلا عن
 القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم
 لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » وأثر عن الشافعى أنه قال :
 الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره
 بها ، وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها لغة تثنى عليك بما أوليت من حسن
 لكان مازاد شكرى إذ شكرت به إليك أبلغ فى الإحسان والنن

(إن الإنسان لظلوم كفار) أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا اشكر
 غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه - ذاك أن الله هو الذى
 أنعم عليه بما أنعم واستحق إخلاص العبادة له ، فعبد هو غيره وجعل له أندادا ليض

عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحد لنعمة التي أنعم بها عليه أصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه وتركه طاعة من أنعم عليه .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّانِ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي، وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) .

شرح المفردات

واجنبني : أى أبعدني ، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره ثم استعمل في البعد مطلقا . وتهوى إليهم : أى تسرع شوقا وحبا . ويقوم الحساب أى يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أى وجدتا .

المعنى الجملى

بعد أن نصب سبحانه الأدلة على أن لا معبود سواه ، وأنه لا يجوز بحال أن يعبد غيره ، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه إذ بدلوا نعمة الله كفرا وعبدوا الأوثان والأصنام .

ذكر هنا أن الأنبياء جميعا حثوا على ترك عبادة الأصنام؛ فإبراهيم صوات الله عليه وهو أبهم نعى على قومه عبادتها وطلب إلى الله أن يجنبه وبنيه ذلك . فبينما كانت سببا في ضلال كثير من الناس ، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل وإسحاق . ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه والمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) أى واذا ذكر تقومك مذكرا لهم بأيام الله خبر إبراهيم إذ قال : ربى المحسن إلىّ بإجابة دعائى اجعل مكة بمكة آمنا . وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه كما قال : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيَتَحَفَّطُ النَّاسُ مِنْ حَوَالِهِمْ » .

(واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام) أى وباعدنى وبنى من أن نعبد الأصنام ، أى ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام . وقد استجيب دعائهم فى بعض بنيه دون بعض ولا ضير فى ذلك .

(ربّ إني أضلّان كثيرا من الناس) أى يارب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن وكفروا بك .

(فمن تبعني فإنه منى ومن عصاني فإنك غفور رحيم) أى فمن تبعنى على ما أنا عليه من الإيمان بك ، وإخلاص العبادة لك والبعد عن عبادة الأوثان - فإنه مستقيم بسنتى وجار على طريقي ، ومن خالف أمرى فلم يقبل منى ما دعوته إليه وأشرك بك فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم .

(ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) أى يارب إني أسكنت بعض ذريتي وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذي زرع وهو وادى مكة عند بيتك الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه .

(ربنا ليقيموا الصلاة) أى إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ويعمروه بذكرك وعبادتك .

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى فاجعل قلوب بعض الناس محترقة شوقاً إليهم .

(وارزقهم من الثمرات) أى وارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار بأن تجبى إليهم ذلك من شاسع الأقطار . وقد استجاب الله ذلك كما قال : « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا » قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا فى كتابه الإسلام والطب الحديث : دعاء سيدنا إبراهيم يفسر ما قلناه . وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا أقل . فالنبي يدعو ربه ليبلغ الناس حج البيت ، فهو يستعين بسنة طبيعية ، وهى إلهام الخالق لنا حج البيت مع أنه يعلم أن الله قادر على أن ينزل عليهم رزقاً من السماء ، ولكن النبي ضرب لنا مثلاً فى طريق استعمال الدعاء وقيمتة ، فالدعاء لا يلقى سنة طبيعية ولا يأتى بالمعجزات ، ولكن الداعى يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية وسأضرب لك مثلاً بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرنى البعض أن من يطلب الطبيب لا يستعين بالدعاء ، والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذى يدعو ربه لشفاء ولده ، لفائدة من دعائه إذا كان ولده قد مات أو إذا كان مرضه مميتاً حتم . ولكن قد يكون للمرض طرق علاج خاصة ، أو قد يشفى من نفسه فى ظروف خاصة ، فالدعاء فى هذه الحال معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره استعمال الطريق المؤدى إلى الشفاء . والطبيب يحتاج دائماً إلى هذا الإلهام ، وكمن مرة يقف فى مفترق الطرق ولا يدري أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدى إلى نتيجة خاصة ، والدعاء هداية إلى السنة المؤدية إلى الشفاء ، وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل أعمال الإنسان يكمل بعضها بعضاً وليست متناقضة ، فدعاء سيدنا إبراهيم معناه أن يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال ولكننا لا نشعر بإلهام

من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذي يحجج لا يشعر بإلهام أو شيء خفي ، ولكن الحقيقة أن أفعال الإنسان قد تكون نتيجة تفكيره واختباراته ويكون سبب حركاتها ظاهرا ؛ وقد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختباراته ولكنه مع ذلك يندفع إلى العمل ، وكثيرا ما نشاهد أشخاصا لا يفكرون في الحجج مدة طويلة ، ولكن فجأة وبدون سبب ظاهر يصممون على الحجج وينفذون إراداتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعا ولكنهم مدفوعون بقوة مهيمنة عليهم أشبه بالفرصة أو الوحي .

وقد أجاب الله إبراهيم إلى دعائه وألهم الناس الحجج في آلاف السنين وإلى ما شاء الله ، لافي مدى حياته فحسب ؛ وفي هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده اه .
(لعلمهم يشكرون) أى رجاء أن يشكروا تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية .

وفي هذا إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعين بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات ، وفي دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والحفاظة على الضراعة وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة ، ومن ثم من الله عليه بالقبول وإعطاء المسئول ، ولا بدع في ذلك فهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء جميعا .

(ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) أى أنت تعلم ما نخفي قلوبنا حين سؤالك ما نسأل ، وما نعلن من دعائنا فنجهر به .

(وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) أى لا ما يخفى على الله شيء يكون في الأرض أو في السماء ، لأن ذلك كله ظاهر متجل له ، لأنه مدبره وخالقه فكيف يخفى عليه .

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) أى الحمد لله الذى وهب لى وأنا آيس من الولد لكبر سننى — ولدين إسماعيل وإسحاق .

(إن ربى لسميع الدعاء) أى إن ربى لسميع دعائى الذى أدعوه به من قولى :

« أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » وقد كان إبراهيم سألته الولد بقوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ . (رب اجعلني مقيم الصلاة) أى رب اجعلني مؤديا ما أُلِّمْتَنِي من فريضتك التى فرضتها على .

(ومن ذريتي) أى واجعل أيضا من ذريتي مقيمي الصلاة ، وقد خص الصلاة من بين فرائض الدين لأنها العنوان الذى يمتاز به المؤمن من غيره ، ولها من المزية العظمى فى تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن . (ربنا وتقبل دعاء) أى ربنا تقبل عبادتى كما جاء فى قوله : « وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي » .

وجاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

(ربنا اغفر لى ولوالدى والمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى اغفر لى ما فرط منى من الذنوب ولأبوى ، وقد روى عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة : واستغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ » الآية ، والمؤمنين بك ممن تبعنى على الدين الذى أنا عليه فأطاعك فى أمرك ونهيك - يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا نخير ، وإن شرا فشر .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْنَدْتُهُمْ هَؤُلَاءِ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا أَيُّهُمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَٰئِكَ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِمَّنْ قَبِِلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَتُمْ فِي
مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكَرُهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولَٰئِكَ
الْأَلْبَابِ (٥٢) .

شرح المفردات

نَشَخَص : تَرَفَّع ، مَهْطَعِينَ : مُسْرِعِينَ إِلَى الدَّاعَى ، مَقْنَعِي رءُوسِهِمْ : أَيْ رَافِعِيهَا
مَعَ الْإِقْبَالِ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ غَيْرِ التَّفَاتِ إِلَى شَيْءٍ ، لَا يَرْتَدُّ : لَا يَرْجِعُ ،
هَوَاءٌ : خَالِيَةٌ مِنَ الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ لِقَرُطِ الْحَيَرَةِ وَالدَّهْشَةِ ، وَيُقَالُ لِلْجِبَانِ وَالْأَحْقَاقِ قَبِيهِ
هَوَاءٌ : أَيْ لِقُوَّةٍ وَلَا رَأْيَ فِيهِ كَمَا قَالَ حَسَنٌ يَهْجُو أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ :
أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سَفْيَانَ عَنِي فَأَنْتَ مَجُوفٌ نَحْبُ هَوَاءٍ

مِنْ زَوَالٍ : أَيْ مِنْ انْتِقَالٍ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ لِلْجَزَاءِ ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ
الْأَمْثَالَ : أَيْ بَيَّنَّا لَكُمْ أَنَّهُمْ مِثْلُكُمْ فِي الْكُفْرِ وَاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ ، عَزِيزٌ : أَيْ

غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وبرزوا : أى خرجوا من قبورهم ، مقرّنين
أى مشدودين ، فى الأصفاذ : أى فى القيود واحداً صَفَدَ ، سراًيلهم ، واحداً
سربال: وهو القميص ، والقطران: دهن يتحلب من شجر الإبل والعَرَعَرِ والتوت
كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الهناء ، وهو أسود اللون منتن الريح
تقول هنأت البعير أهْنُوهُ إذا طليته بالهناء ، وتغشى وجوههم النار : أى تعلوها وتحيط
بها ، بلاغ : كفاية فى العظة والتذكير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفراً وجعلوا له الأنداد
جهنم يصلونها وبأس المهاد ، وطب إلى عباده المؤمنين بحضرة النفس والهوى وإقامة
فرائض الدين - ذكر هنا تسوية لرسوله وتهديدا للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم
وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس بإهمال للعقوبة ولا إغفلة عن حالهم ، وإنما كان الحكمة
اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول له من الأوصاف مأين بعد ، وعليك
أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى
الدنيا ليحيبوا دعوة الداعى ، وهيئات هيئات .

صاح هل رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بَرَاعٍ رَدَّ فى الضرع ما قرى فى الحلاب
وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها فإنها كانت لقوم مثلكم
كفروا بأنعم الله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسله لا يخلف وهو ناصرهم وخاذل أعدائه كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ
رُسُلَنَا » وقال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ومحاسبهم فى يوم تبدل الأرض
غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وترى
حال الجرمين يحل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ وإنذار نيتذكر به ذوو العقول الراجعة وليعلموا أن الله واحد لا شريك له .

الايضاح

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تقدم أن مثل هذا الخطاب من وادى قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جاره) فهو فى صورته للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وفيه تسلية للمؤمنين وتهديد للظالمين بأن الله محص أعمالهم ومحيط بها ، وسيجزىهم وصفهم فى الحين الذى سبق فى علمه ، وأن عقابهم لا بدآت ، فتركه بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ، إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة . ثم أوعدهم حول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم وفيه من الهول ما يحير اللب ، ويدهش العقل فقال :

(إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى إنما يمهلهم ويمتعمهم بكثير من لذات الحياة ولا يعجل عقوبتهم ، ليوم شديد الهول ترتفع فيه أبصار أهل الموقف وتبقى مفتوحة لاتطرف من الفزع والاضطراب . (مهطعين) أى يأتون مسرعين إلى الداعى بالذلة والاستكانة كما يسرع الأسير والخائف .

(مقتضى رؤوسهم) أى رافعيها مع دوام النظر من غير التفات إلى شيء . (لا يرتد إليهم طرفهم) أى لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف من شدة الفزع والخوف . (وأفئدتهم هواء) أى إنها مضطربة تجيش فى صدورهم ، تجيء وتذهب ولا تستقر فى مكان حتى تبلغ الحناجر ، لشدة ما يرون من هول موقف الحساب . ثم ذكر مقاتلتهم حين يرون هول الموقف وما فيه من العذاب فقال : (وأنذر الناس يوم يأتىهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل

قريب نجب دعوتك وتبع الرسل) أى خوف أيها الرسول القوم الظالمين ، وازجرهم عما هم عليه من الظلم شفقة بهم - هول يوم العذاب وشدة حين يقولون من الهلع والجزع : ربنا أرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا أمداً قريباً نجب فيه دعوة الرسل إلى توحيدك وإخلاص العبادة لك بعد أن جحدنا ذلك .

ثم رد عليهم مقاتلهم بقوله :

(أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى وحينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتفريع : ألم تحلفوا فى الدنيا إنكم إذا متم لا تخرجون لبعث ولا حساب كما حكى الله عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » فذوقوا وبال أمركم .

أخرج البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها . فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون : « رَبَّنَا آمَنَّا اِثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتِنَا اِثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » فيجيبهم الله عز وجل : « ذَلِكَكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم جل شأنه : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » الآية ، ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم تبارك وتعالى : « أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ » الآية . ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم جل جلاله : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم جل وعلا : « احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق وحينئذ ينقطع رجائهم ويقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض

ونطق عليهم جهنم . اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ونلوذ بك منك من عذابك
وسألك التوفيق لعمل الصالح في يومنا الغدا ، والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن
يخرج الأمر من يدنا اه .

وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا
الكم الأمثال) أى وأقمتم فيها واطمأنتم وسرتم سيرة من قبلكم في الظلم والفساد
لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم ولم تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه
أهلكهم بظلمهم ، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ما حاق بهم ، بعد أن
نبين لكم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بمعينة آثامهم وتواتر أخبارهم ، ومثلنا
لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر ، فلم ترعوا ولم تتوبوا
من كفركم .

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل ؟ فهيات
هيات ، قد فات ما فات ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل في سم الخياط .
ثم بين أن حاكم كحال من سبقهم حذو القذة بالقذة فقال :

(وقد مكروا مكرهم) أى وقد مكروا فى إبطال الحق ونقرير الباطل مكرهم
الذى استفرغوا فيه كل جيدهم وأحكوا أسبابه حتى لم يبق فى قوس الحق منزع .

ثم ذكر بعدئذ أن الله عليم بكل ما دبروا فقال :
(وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله مكرهم وهو لا محالة مجازيهم عليه ،
ومعذبتهم من حيث لا يشعرون .

والخلاصة — عند الله جزاؤهم وما هو أعظم منه ، فرأيهم آفن إذ هم سلكوا
طريقا كان ينبغي البعد عنها بعد أن استبان فسادها .

ثم ذكر أن عاقبة مكرهم الخسران والبوار فقال :
(وإن كان مكرهم لنزول منه الجبال) أى وما كان مكرهم لنزول به آيات الله
وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل التى هى كالجبال فى الرسوخ والثبات .

والخلاصة — تحقير شأن مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوءات الثابتة ثبوت الجبال ، فليس بمزِيل شيئاً منها مهما قوى وكان غاية في المثانة والعظم .

(فلا تحسبن الله يخلف وعده رسله) هذا الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم على نهج سابقه ، والمقصود منه تثبيت أمته على ثقتهم بوعده ربهم وتيقنهم بإنجازهم بتعذيب الظالمين وأنه منزل سخطه بمن كذبه وجحد نبوته .

(إن الله عزيز ذو انتقام) أى غالب على أمره لا يمتنع منه من أراد عقوبته . وقادر على كل من طلبه لا يفوته بالهرب منه ، وهو ذو انتقام ممن كتم برسله وكذبهم وجحد نبوتهم وأشرك به واتخذ معه إلها غيره .

ثم ذكر زمان الانتقام فقال :

(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) أى إنه تعالى ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطير هذه الأرض كالهباء ونصير كال دخان المنتشر ثم ترجع أرضاً أخرى بعد ذلك ، وتبدل السماوات بانتثار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها .

قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض إلا أنها تغيرت فى صفاتها ، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت ، وروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يبدل الله الأرض غير الأرض فيسطها ويمدها مدّ الأديم العكاظى فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن التى أيدها العلم الحديث وانطبقت عليه أشد الانطباق ، فعلماء الفلك الآن يقولون إن الأرض والشمس وسائر الكواكب السيارة كانت فيما مضى كرة نارية حارة طائرة فى الفضاء ودارت على محورها ملايين السنين ، ثم تكونت منها الشمس ، وبعد ملايين أخرى فصلت منها السيارات ومنها الأرض ، وبعد مئات الألوف انفصلت عنها الأقمار .

ولا شك أن هذه الحال بعينها استعداد كرة أخرى : أى إن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستتحل مرة أخرى ويدوب ذلك الوجود كله ويتطير في الفضاء حقبة من الزمن ، ثم تعاد كرة أخرى وتكون شمس غير هذه الشمس وأرض غير هذه الأرض وسموات غير هذه السموات .

روى مسلم عن عائشة قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط » .

وروى عن أبي بن كعب أنه قال فى معنى التبديل : إن الأرض نصير نيرانا . وعلى الجملة فقد اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث على أن الأرض نصير نارا وأن الناس لا يكونون عليها ، بل هناك ما هو أعجب وهو ما روى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما من قولهما : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة ، ولا بدع فى أن تكون أرضا جديدة لم يسكنها أحد ، بل تخلق خلقا جديدا . (وبرزوا لله الواحد القهار) أى وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدى الواحد القهار ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار سواه .

وفى هذا من تهويل الخطب ما لا يخفى ، لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لا يشاركه سواه فى سلطانه كانوا على خطر إذ لا منازع له ولا مغيب سواه .

و بعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهارا - بين عجز المجرمين وذلتهم فقال : (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفهاد . سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) وصفهم سبحانه بجملة أمور :

(١) إنه يقرن بعضهم إلى بعض فى القيود ويضم كل إلى مشاركته فى كفره وعمله كما قال تعالى : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » وقال : « فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » وفى الحديث : « أنت مع من أحببت » .

(٢) إن قصصهم التي ينسونها من قطران ، والمراد من ذلك أن جلود أهل النار تطلّى بالقطران حتى يعود ظلّها كالسرايل ، ليجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لنزع القطران وحرقة ، وإسراع اشتعال النار في الجلود ، واللون الأسود الموحش ، وثقل الرياح .

(٣) إن وجوههم تلعوها النار وتحيط بها وتسعر أجسامهم المسرّبة بالقطران ، وإنما ذكرت الوجوه مع أن ذلك يكون لسائر الجسم - لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله : « أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَّجَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

(ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى فعل الله ذلك بهم جزاء بما كسبوا في الدنيا من الآثام جزاء وفاقا ، كي يثيب كل نفس بما كسبت من خير أو شر فيجزى الحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

(إن الله سريع الحساب) فيحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر ، ولا يشغله حساب عن حساب ، كما لا يشغله رزق زيد عن رزق عمرو .

(هذا بلاغ للناس) أى هذا القرآن الكريم بلاغ للناس أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواظبه وعبره .

(ولينذروا به) عقاب الله ويحذروا به نقمته .

(وليعلموا أنما هو إله واحد) أى وليعلموا بما احتج به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد لا آلهة شتى كما يقول المشركون بالله ، وهو الذى سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم .

(وليذكر أولو الألباب) أى وليتذكروا ويتعظوا بما احتج الله به من الحجج

فإنزجروا عن أن يجعلوا معه إلها غيره ، وفق تخصيص التذكّر بأولى الأبواب إعلاء شأنهم ، وإيماء إلى أنهم هم أهل النظر والاعتبار .

وجملة القول إنه سبحانه جعل لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الحكمة من إنزال الكتب والرس :

(١) إن الرسل يخوفون الناس عقاب الله وينذرونهم بأسه ليكملهم بمعرفة ربهم وتقواه والعمل على طاعته .

(٢) إن الناس ترنق قوتهم النظرية إلى منتهى كمالها بتوحيد الخالق والاعتراف بأنه مدبر الكون والمسيطر عليه .

(٣) إنهم يستصلحون قوتهم العملية بتدريجهم بلباس التقوى .

فذلكة لمحتويات السورة

(١) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسموات والأرض .

(٢) ذم الكافرين الذين يستحبون الدنيا ويصدون عن الدين القويم .

(٣) بيان أن الرسل إنما يرسلون بلغات أقوامهم ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهي .

(٤) التذكير بأيام الله ببيان ما حدث للرسول مع أقوامهم ليكون في ذلك تسليمة لرسوله ، وما هدد به الأمم رسوله من الإخراج والنفي من الديار .

(٥) وعيد الكافرين على كفرهم وذكر ما يلحقونه من العذاب ، وضرب الأمثلة لذلك .

(٦) وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وضرب المثل لذلك .

(٧) دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام التي أضلت كثيرا من الناس ، ثم شكره على ما وهبه من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(٨) بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم ، إنما كان لحكمة اقتضت ذلك ، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يحل عنه الوصف .
تم تفسير هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة في صبيحة يوم الأحد لثلاثين من شهر ربيع الثاني من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه الكرام .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر .
٥	اللغة التى كلم بها يوسف ملك مصر .
٦	الجهل وسوء تدبير الثروة أضاعا كثيرا من الممالك الشرقية فى القرون الأخيرة .
٧	جىء بيوسف مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ .
٩	لما ولى يوسف الوزارة ساس البلاد سياسة رشيدة وقت البلاد شر المجاعات .
١١	فى سفر التكوين أنه استنبأهم عن أنفسهم متذكرا لهم .
١٢	طلب من إخوته إحضار أخيه الشقيق .
١٣	ممانعة الأب فى إرسال الأخ ثم الاذن لهم بذلك .
١٥	أخذ العهد والميثاق عليهم .
١٩	مقابلتهم ليوسف بعد إحضار الأخ وحسن معاملته لهم .
٢٠	سرقة الصواع .
٢١	قضت الحكمة الإلهية عقاب إخوة يوسف بما فرطوا فى يوسف .
٢٣	أصبح ما قيل فى سرقة يوسف .
٢٦	تشاورهم فيما يفعلون عند رجوعهم إلى أبيهم .
٢٧	لم يصدقهم يعقوب فى المعاذير التى أبدوها فى عدم رجوع الأخ معهم .
٢٨	سبب ما أصاب يعقوب من ابيضاض عينيه .
٢٩	نصيحة أولاد يعقوب له على حزنه الممض .
٣٠	كان لدى يعقوب إلهام بأن يوسف لا يزال حيا .
٣٤	لم لم يعرف يوسف إخوته بنفسه بادىء بدء ؟ .

الصفحة	المبحث
٣٥	تمثل النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة بقول يوسف لا تريب عليكم اليوم.
٣٩	كيف شم يعقوب رائحة يوسف؟
٤١	تأويل رؤيا يوسف من قبل .
٤٣	خرّ يعقوب وأولاده سجدا ليوسف .
٤٥	طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة.
٤٦	في ذكر قصص يوسف إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
٥٠	التوسل إلى الله بصالح عباده .
٥١	الحكمة في إيهام وقت الساعة .
٥٢	الدين الإسلامي دين حجة وبرهان لادين تقليد وتسليم .
٥٣	أرسل الله من البشر رسلا من قبل محمد فكيف يعجبون من رسالته عليه السلام؟
٥٥	نصر الله رسله ينزل حين ضيق الحال وانتظار الفرج .
٥٦	قصص يوسف عبرة لذوى البصائر .
٦١	اهتدى المسلمون بهدى القرآن فامتسكوا أكثر المعمور .
٦٣	الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته .
٦٧	تفكروا في آلاء الله ولا تنفكروا في الله .
٧٠	إنكار المشركين للبعث .
٧٢	طلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم آية غير القرآن .
٧٣	الرسول نذير لا جبار مسيطر .
٧٥	أقصى المدة التي يبقى فيها الجنين حيا في الرحم .
٧٥	في قوله عالم الغيب والشهادة دليل على وجود عوالم لا ترى بالعين الجردة كالجراثيم التي أثبتها العلم حديثا .

الصفحة	المبحث
٧٧	المرء بين أربعة أملاك بالليل وأربعة بالنهار .
٧٧	ليس أمر الحفظة ببيعيد من العقل بعد كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها .
٧٨	الظلم مؤذن بخراب العمران .
٨١	وفد عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان من أمرهما .
٨٢	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه .
٨٥	تأنيب المشركين على اتخاذ الشركاء .
٨٦	من عنده مسكة من عقل لا يعبد ما لا يضر ولا ينفع .
٨٨	مثل الحق والباطل .
٩٥	كان رسول الله يأتي المقابر فيقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .
٩٦	جزاء ناقضى العهد والميثاق .
٩٨	لا تعلق لبسطة الرزق بإيمان ولا كفر .
٩٩	طلبهم من الرسول آية غير القرآن .
١٠٢	ليس محمد ببدع من الرسل ولا قومه بأول المكذبين .
١٠٥	ليس ما اقترحوه من الآيات مما تقتضيه الحكمة .
١٠٦	اصبر أيها الرسول كما صبر أولو العزم من الرسل .
١٠٨	ليس هناك من دليل عقلى ولا نقل على وجود الشركاء .
١١٢	• هـام الرسالة .
١١٣	إنكار اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الزوجات مع ذكر الحكمة في ذلك .
١١٤	لاتأتى المعجزات إلا على مقتضى الحكمة .
١١٤	لكل كتاب أجل لا يعدوه .

الصفحة	المبحث
١١٥	مثل الدنيا مثل مصنع رتبت أعماله على نهج معين لا تغيير فيه ولا تبديل .
١١٧	على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب .
١١٨	لامعقب لحكم الله .
١٢٤	الله هو خالق الأكوان والمنفرد بالعظمة والسلطان .
١٢٩	الإنسان يجب أن يكون في هذه الحياة بين صبر وشكر .
١٣٣	كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .
١٤٣	ما أعد الله لعباده السعداء من الثواب .
١٤٥	محاورة بين الشيطان وأتباعه .
١٤٦	مآل المتقين جنات النعيم .
١٤٧	مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .
١٤٩	فائدة ضرب الأمثال .
١٥٠	سؤال الملوك في القبر .
١٥٤	الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .
١٥٦	نعم الله على عباده .
١٥٧	وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .
١٥٨	دعاء إبراهيم يجعل مكة بلدا آمنا .
١٦٠	الدعاء سنة طبيعية .
١٦١	إجابة دعاء إبراهيم .
١٦٤	سيطلب المجرمون العودة إلى الدنيا وهيئات هيئات .
١٦٥	وصف حال المجرمين في ذلك اليوم .
١٦٧	حال مشركي قومك كحال من سبقهم .
١٦٨	يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .
١٦٩	سيكون المجرمون مقرنين في الأصفاد والسلاسل .